كتاب الهلال

سلسلة
ثقافية
شهرية

أضواء على الأدب والحياة

إبراهيم المصري



كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر من « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : فكري أباظة ● نائب رئيس مجلس الإدارة : صالح جودت

رئيس التحرير : صالح جودت

المشرف الفني : جمال قطب

سكرتير التحرير : عايد عياد

العدد ٢٨٧ – شوال ١٣٩٤ – نوفمبر ١٩٧٤

No. 287 — Novembre 1974

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : «١٢ عددا» فى جمهورية مصر العربية وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقى ١٢٠ قرشا صاغا . فى سائر أنحاء العالم ٦ دولارات امريكية أو ٢٫٥ جك – والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى جمهورية مصر العربية والسودان بحوالة بريدية . فى الخارج بشيك مصرفى قابل للصرف فى جمهورية مصر العربية والاسعار الموضحة اعلاه بالبريد العادى – وتضاف رسوم البريد الجوى والمسجل على الاسعار المحددة عند الطلب .

كتاب الهلال

سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغـــلاف بريشـــة
الفنـــان جمـــال قطب

إبراهيم المصري

أضواء على الأدب والحياة

نظرات وتأملات في ألوان
مختلفة من الفكر الحديث

دار الهلال

أضـــــواء

على

الأدب

الحرية فى الأدب

لايعيش الادب وينمو ويؤتى ثماره الرائعة الا فى جو من الحرية . ولا قيمة للأدب الا اذا كان حرا لا تكبله أية قيود . والادب الحر يعود على المجتمع بأضعاف الفائدة التى يعود بها عليه الادب الملتزم بغاية عملية مباشرة تهدف الى الاصلاح ، أو تدعو الى نظام اجتماعى أو مذهب فلسفى . ذلك لان الادب ليس منبرا للدعاية والاصلاح والارشاد . مجال الدعاية والاصلاح هو المقال . أما القصة أو المسرحية أو الشعر فهى الادب الخالص الذى يجب أن يكون حرا طليقا يسبح فى أى الاجواء شاء .

وقيمة هذا الادب الخالص انه بحكم حريته نفسها يرتفع بنا ، ويعلمنا ان نكون أحرارا . فهو اذ يرسم لنا الحياة كما هى بدون آراء أو دعايات أو نظريات مهيأة فى ذهن الاديب من قبل ، يحفزنا الى التفكير فى الحياة تفكيرا حرا . فيدفعنا الى استخلاص أفكار وآراء عن الحياة خاصة بنا . فتصبح هذه الافكار والآراء وليدة شخصيتنا المستقلة أى ثمرة عقلنا وتفكيرنا وثقافتنا .

فمطالعة مسرحية لشكسبير أو قصة لبلزاك أو دستويفسكى مثلا ، لا يمكن أن تشعرك بأنك قد أنفقت عبثا وقتك وجهدك وانك خرجت بلا فائدة . الواقع ان

استيعابك لها وادراكك محاسنها ليس استيعابا وادراكا تأمليا سلبيا تختلط فيه الدهشة بالاعجاب فحسب ، بل هو ضرب من المشاركة الفعلية مع المؤلف وشخصياته ، اذ العواطف السامية أو الوضيعة التى واجهتها فى العمل الادبى هى فى جوهرها عواطف فعالة لا بد أن تنعكس فى نفسك ، فتضعك أمام اختيار حر من الحكم لها أو عليها ، من الميل اليها أو النفور منها ، من محاكاتها أو نبذها اطلاقا . وهكذا تتأكد حريتك ومسئوليتك تجاه نفسك والحياة .

الاديب وشخصيته

الاديب الحق يرتمى فى غمرة الحياة ما استطاع . يريد ان يفهم ذاته ويفهم الناس ، أن يراقب ويلاحظ ويتمرس بشتى الميول والاهواء ، أن يهيم فى أبعد مجاهل النفس وآخفاها ، أن ينصهر فى نار التجربة ، أن يهبط الى قرارة اللذة ليحس بأقصى الالم . وهو متى تألم وعرف واختبر، فعندئذ يواجه بكليته فسحات الحياة ، وتنفتح مغاليق وجدانه وتستقبل مختلف مشاعر الانسان من حب وبذل، أو أنانية وشهوة ، أو كره وحقد ، أو شفقة ورحمة ، أو بطولة وتضحية . فيختزن هذه المشاعر جميعا ، ثم تأخذ أعصابه فى التوتر ، وخصائصه الذهنية فى التحفز، وتبدأ وظائف المخيلة والذاكرة والاحساس والعقل فى اطلاق ما اختزنت ، وابداعه منظما ومنسقا ، وفى الوقت نفسه مختلجا وحيا ، فى العمل الادبى المنشود .

العمل هو الكاشف

الاديب يؤكد شخصيته فى عمله أكثر مما يمكنه ان يؤكدها فى حياته . اذ حياته وان كانت زاخرة بشتى

الرغبات والتطلعات الا ان من المستحيل عليه أن يحقق تلك الرغبات والتطلعات كاملة فى واقعه اليومى . واذن فهى جميعا ، وعلى الرغم منه ، تبرز وتتحقق فى عمله الذى لو تأملناه فى دقة وصبر لوجدنا انه يميط عن حقيقته اللثام ، ويكشف لنا عن جوانب شخصيته كلها .

ابداع الاديب

ان عمل الاديب الكبير يجاوز بكثير كيانه الشخصى. انه هو نفسه لا يعلم السر العميق الكامن فى عمله ، ولا يفطن الى الروائع الدقيقة المندسة فى أطواء العمل ، ولا يدرى كيف تولد هذا العمل منه ،ولا يقدر مدى التأثير الذى سيحدثه العمل فى الناس .

فهو يبدع فى غيبوبة من الالم والفرح والامل فى الخلاص ، غيبوبة مهما كانت متنبهة فهى تائهة ، تماما كتلك الغيبوبة التى تستولى على المرأة ساعة الوضع وعقب اشتداد المخاض .

الساحر الخبيث

الكاتب الذى يعنى بزخرف اللفظ لا بد أن يغفل دقة المعنى . اذ اللفظ المزخرف ساحر خبيث ، يطرب الاذن ويهز العصب ، فيطغى على العقل ، ويشوش عمل الفكر، ويجعل من عبارة الكاتب طبلا أجوف تتردد أصداؤه فى فضاء .

العبقرية والارادة

لم تكن العبقرية أبدا نارا تظل متأججة من تلقاء نفسها . ومهما كان الاديب عبقريا ، فعبقريته شعلة تتطلب وقودا دائما من ثقة فى النفس عميقة ، وارادة فى العمل عنيدة ، وتأهب خالص للبذل والتضحية والا خبت

نارها ، وانطفأت وماتت ، وخلفت فى نفس الاديب الكمد والحنق ، ولوعة اليأس وبؤس الحسرات .

فالانسان ارادة ، والعبقرية من الانسان . ومن المحال أن تتأكد عبقرية الاديب الا بالعمل والدأب والصبر وانكار الذات أى بالارادة التى تمثل قيمة وامتياز الانسان .

شهيد ...

لا يمكن للرسام أن يصور الزمن الهارب فى لوحة ، ولا يمكن للموسيقى أن يصور الفضاء الشاسع فى قطعة موسيقية . كذلك لا يمكن للأديب أن يصور كل ما يعتمل من مشاعر وعواطف وأفكار فى النفس البشرية . لا يمكنه أن يصور المستحيل .

ومع ذلك فالاديب الفذ يحاول قبض المستحيل . وهذا هو مجده . بل أن مجده ليبلغ الذروة كلما تمادى فى طمعه ولم يقنع باقتناص جزء من المستحيل أو بضعة أجزاء . عندئذ يغامر بحياته ويصبح شهيد مثل أعلى . فيتزعزع منه العقل والعصب ، وقد تفضى به مغامرته الخارقة الى الجنون .

القصة والكتاب

ما يزال جمهور كبير من القراء عندنا يحترم الكتاب ويستخف بالقصة . يحترم الكتاب حيث يجد أفكارا ومعلومات يمكنه أن يخرج منها بفائدة . أما القصة فلا يعتبرها أكثر من « خيال » فيقبل عليها للتسلية لما تحتويه من غرائب وتهاويل ، ولا يهتم الا بحوادثها ونهايتها فقط . واما ما قد يكون فى القصة من تصوير للعواطف ، وتحليل للمشاعر ، ومحاولة للنفاذ الى عمق

النفس البشرية بغيــة معرفة الانســان وفهم الحياة ، فأشياء تضجره ولا يتصور ان لها غاية أو معنى . فهو عملي وحسي لا وجداني ومعنوي ، أي انه يعيش بمعزل عن الحياة في تدفقها اليومي الممثل في القصة . وكما انه يحب المرأة كي ينعم بامتلاكها ، كذلك هو يحب الـكتاب كي ينعم منه بامتلاك فكرة تستهويه ، أو فكرة يخيل اليه انها هي الحقيقة وانه يحتضن بها الحياة نفسها .

القصـــــــــــة
بين التصور والواقع

ان روعة الفن القصصي ليست في رسم الواقع بل في نوع تصوره ، أي في الاسلوب المستحدث الطريف الذي يتمثل فيه هذا التصـور .

وأنواع التصور الفني تختلف من حيث القوة والضعف باختلاف قوة ملـكات الابتكار أو ضــــــعفها في نفس القصصي .

فأنت قد تصف لي مشهدا وتردد على ان هذا المشهد قد ملك عليك مشاعرك وأحدث فيك انقلابا عاطفيا خطيرا، فلا أشعر أنا حياله بما يثير الاهتمام .

ويتناول القصصي الفذ هـــذا المشهد بعينه فيجزئه تجزئة فنية ماهرة ، ويقتطع منه العناصر الدخيــلة ، ويعرف كيف يوزع الاضواء والظلال على الجوانب الهامة فيه ، فيؤثر في نفسي أبلغ تأثير بل وينقش المشهــد في ذهني بحيث يستقر في عقلي الباطن وقد يغير في لحظة مجرى حياتي .

وسواء أكان القصصي قد واجه هــذا المشهد أم لم يواجهه ، ففي وسعه أن يتصوره تصورا يضفي عليه من

القوة والحيوية ما يقنعنى بأنه قد وقع فعلا ، وانى أمام حقيقة لا أمام خيال .

ذلك لان القصصى الكبير بما احتشد فى حياته من تجارب وفى ذهنه من ملاحظات ، ينفذ بعين بصيرته الى ما لا يمكن أن يبصره سواد الناس . فيرى الحقيقة الظاهرة والباطنة ، الهيكل والفكرة ، عرض الاشياء وجوهرها ، مجموعها السطحى وتفاصيلها ، أسبابها ونتائجها .

على ان لكل من القصصيين العظام أسلوبا فى تصور الواقع يمتاز به ويؤثر عنه .

فدستويفسكى مثلا يرى الاشخاص والاشياء من خلال الظلمة النيرة التى تسبح فيها الانفعالات فى أبعد أغوار النفس البشرية ، و « فلوبير » يراها ساطعة الالوان ، واضحة المعالم ، دقيقة التفاصيل ، تعبر مظاهرها العادية عن أعمق الاهواء والميول و « اناتول فرانس » لا يحفل بتحليل نفسيات أشخاصه قدر اهتمامه بالكشف عن غرائزهم وشهواتهم ، والافكار التى تجول فى أذهانهم وتنم عن خصائص أخلاقهم وطباعهم .

وفى وسعنا أن نضرب عديدا من الامثلة تؤيد ما نذهب اليه .

فالواقع المجرد اذن ، الواقع الشائع الذى تأخذه العين العابرة المتعجلة لا قيمة له من الوجهة الفنية ، بل القيمة كل القيمة فى أسلوب تصور القصصى لهذا الواقع، فى نوع واقعه هو ، وفى اشعارنا بأننا كنا غافلين عن هذا الواقع ، كنا نجهله ، وانه خلق على يد القصصى من جديد ، غنيا بالجمال ، حافلا بالاسرار التى كان اذكانا

عقلا وأدقنا نظرا عاجزا كل العجز عن ادراكها .

وليس معنى التصور هنا هو الخيال كما نفهمه ، ذلك الخيال الذى يبالغ فى رسم الواقع ويضيف اليه اضافات غريبة عنه لا بد أن تشوهه .

ان تصور القصصى ، أو اذا شئت خياله الخاص ، يتمشى مع الواقع لتدعيمه ، أى يرى الواقع من الظاهر والباطن فى لقطة واحدة ، فيصب عليه أضواء تميط اللثام عن جوانبه كلها .

واذن فالفن القصصى الرفيع هو واقع جديد وطريف ينبع من التصور المتوثب النافذ الكامن فى طبيعة الفنان.

القصـــــــة
بين الايحاء والتحليل

هناك طريقتان رئيسيتان كان لهما أكبر الاثر فى انتاج أروع ما أخرجه العقل البشرى من قصص حتى يومنا هذا .

وهاتان الطريقتان هما : الايحاء والتحليل .

فالقصصى الذى يقيم فنه على الايحاء لا يتناول أشخاصه الا من الظاهر . فيلقى بهم فى غمرة الحوادث ، ثم يأخذ فى رسم حركاتهم وسكناتهم وملامح وجوههم وضروب حوارهم بحسب ما يطرأ عليهم خلال حوادث القصة من تقلبات واطوار . فحوادث القصة تتطور ، وكذلك مظاهر الاشخاص .

وفن الروائى الايحائى هو فى تحرى الدقة البالغة فى وصف هذه المظاهر أثناء سير القصة . ومن هذه الدقة فى الوصف ومن تراكم الصور والملاحظات الخارجية ومن تنوع ضروب الحوار وارتباطها بتلك الملاحظات ، يوحى

الينا القصصى بما يعتمل فى نفوس أشخاصه . فيشعرنا به ، ويكشف لنا عن غوامضه ، ويرغمنا على استخلاص حقيقة الشخصية وجوهرها من مجموع تلك الملاحظات الموزعة هنا وهناك .

ومن القصصـــــــيين المولعين بهذه الطريقة « ليون تولستوى » فهو يرسم الاشخاص من الظاهر ، ولا يحلل العواطف ولا يهتم بالنفاذ مباشرة الى باطن النفس ، بل يصور الانسان فى حركاته وسكناته وملامح وجهه تصويرا لفرط دقته وكماله ، يوحى الينا بل ويلمسنا كل مايجول فى نفس الشخص من مشاعر وأهواء وميول. فالجسد فى نظره مرآة الروح ، وبقدر ما يكون مصدر الجسد عبقريا تكون قدرته على اشــعارنا بما يدب فى مجاهل الروح .

هــذا الى ان تولستوى لم يكن بطبعه ميالا الى رسم الشخصيات الخارقة والاحساسات الشــاذة والعواطف المعقدة ، فكان أسلوبه البسيط متفقا تماما وبســاطة الحياة التى أراد أن يصــورها . فهو مصــور النفوس المتوسطة ولــكنه أدق مصور لتلك النفوس .

أما دستويفسكى فهو على النقيض يصور الشخصيات ذات المشاعر والافكار المختلطة المتضاربة المعقدة الغريبة السابحة فى تموج نفسانى دائم ، يصورها بالمنهج الايحائى ذاته ، مكتفيا بالاشارات العارضة ، واللمسات الظاهرية، والدلالات النفسية ، دون ما استفاضـــــــــة فى الشرح والتحليل . فيلاقى القارىء أشد الصعوبات فى ملاحقة ملاحظاته على مداها البعيد ، والاحساس الدقيق بقوة ايحائه ، فيضطر الى أنيعود ويطالع القصة توصلا الى

فهم بواطن الشخصيات وما قد أراد القصصى أن يرمى اليه .

أما الطريقة التحليليـة فهى ميزة الفرنسيين ، أمة الوضوح والمنطق والقياس والتناسب فى العمل الادبى .

وهذا الفن القصصى التحليلى الخالص هو نقيض الفن الايحائى . والقصصى التحليلى يقتحم العواطف مباشرة، ينتزعها من ظلمات النفس ، ويصب عليها ضوءا ساطعا من تحاليله ، مفتنا فى عرض أجزائها وتفاصيلها كأنما هو يمدد النفس البشرية على مشرحة .

وهذا الفن رائع أيضا . والسر فى روعته انه يتحرك فى محيط النفس فقط ، وان محيط النفس هذا سرى ومبهم وغامض بطبيعتـه . فاذ يصب القصصى عليه أضواء تحليله الوهاج ، ينبهر القارىء ، وتأخذه هزة من نشوة اعجاب وفرح ، لانه استطاع أن يبصر الحجاب وهو يتمزق عن تلك الميول والاهواء المدلهمة المتضـاربة التى طالما استشعرها فى أعماق نفسـه ، وتحير طويلا فى فهم أسبابها وعللها .

وهكذا يحس بقدرة مزدوجة ، قدرته على فهم نفسه، وقدرته أيضا على فهم نفوس الآخرين . وهذا ما حمل المفكر الالمانى « نيتشه » على الاعجاب بالروح اللاتينيـة عامة والفن القصصى الفرنسى التحليلى خاصة .

فكأن للقصة التحليلية فوق هـدفها الفنى ، هـدفا أخلاقيا يرتفع بالفرد عندما ينظر من خلال القصة الى ميوله وأهوائه نظرة عقل وفحص وادراك ، فيتسـلط بهذه النظرة على تلك الاهواء والميـول ، ويسـودها ، ويوجهها وجهة عملية نافعة ، ولا يعود ينخدع بتقلباتها

فى نفسه وفى نفوس الآخرين .

وهذا الفن وان كان العقل أهم أدواته ، فهو لا يتجرد أبدا من قوى التخيل والاستشعار والحدس ، وهو بما فيه من الخصائص التى أشرنا اليها أى الوضوح والمنطق والقياس ـ كما فى مسرحيات « راسين » وقصص « بنجمان كونستان » و « فرومانتان » و « مدام لافاييت » وكثير من المعاصرين ـ يبدو لنا هذا الفن متى اكتملت عناصره أشبه بتمثال اغريقى بديع الصنع متسق الخطوط متناسب الاوضاع .

ومما تجب الاشارة اليه هنا ان أعمال أولئك القصصيين الفرنسيين وان كانت تستخدم منهج التحليل، الا ان كلا منها يحمل طابع صاحبه المستقل ، بل ان هذا المنهج التحليلى نفسه قد نما وازدهر وتجدد فى السنوات الاخيرة ، واستطاع ـ الى ما فيه من قوى التخيل والاستشعار والحدس وبارتكازه على العقل أيضا ـ أن يستمد حياة خصبة من محصول الثقافة العصرية ، وان يساير تطورات العلم الحديث والفلسفة الحديثة ، لاسيما فى قصص « مارسيل بروست » التى نلمح فيها ـ من خلال أسلوبها الطريف وتحاليلها البعيدة الفور الدائرة حول تصوير ما يرسب فى ذاكرة الانسان من بقايا المؤثرات التى علقت بخياله وحواسه فى الماضى والتى تخلق اليوم عواطفه وميوله ـ نلمح فى تلك القصص آثار نظريات الفيلسوف « هنرى برجسون » فى التطور الخالق وحركة الزمن والاهتداء بالبصيرة ، كما نلمح آثار تجارب العلامة « فرويد » فى طبيعة الاحلام وأسرار العقل الباطن .

هاتان هما الطريقتان اللتان أنتجتا خير ما عرف من قصص حتى اليوم .

ونحن لا نؤثر طريقـــة على أخرى ، اذ المسألة فى صميمها مســـألة مزاج ، والفن جوهر لا يتجزأ مهما اختلفت وتنوعت الاشعاعات المنبعثة منه .

وبعد فليس المهم أن يكون الـكاتب قصصيا ايحائيـا أو قصصيا تحليليا ، بل المهم أن يكون فنانا صادق النظرة الى الحياة ، قوى الاحساس بها ، نافذا الى البعيد من أعماقها ، قادرا على التعبير عنها ، وله بعد ذلك أن يختار أى المذاهب والطرائق شاء .

نحن أبناء الشمس

هناك طائفة من أدبائنا تعجب أشـد الاعجاب بالادب الروسى ، وتتأثر به وتنحو نحوه وتتمنى أن تحاكيه . ولـكن هـذا تقليـد . والتقليد هزيمة . اذ كل تقليد يفقد الشخصية خصائصها واسـتقلالها . ثم ان الادب الروسى رغم عظمته وانسانيته ، فهو فى مجموعه أدب ضبابى ملبد عاصف ، مشوش الاجزاء والتفاصيل ، مفتقر الى التماسك والوحدة ، لا يهتم فى الغالب بروعة الاسلوب ولا بكمال الشكل . أما نحن أبناء الشمس ، فعبقريتنا تتفجر من نبع البحر المتوسط ، ونحن أقرب الى الاغريق واللاتين منا الى الروس أو أهل الشمال الاوربى . فكلما أبدعنا ، وفق روح بحرنا الابيض ، أدبا واضحا مشرقا ساطعا تجتمع فيه طرافة الفكرة وعمقهـا ، وخصـائص الجنس المصرى ومميزاته ، وعالمية القصد والهدف ، مع روعة فى الاسـلوب ، وتماسـك فى الاجزاء ، وكمال فى القياس والوضع والشكل ، كنا أكثر استجابة الى طبيعتنا .

الاصيلة ، وكنا حقا صادقين ومستقلين وغير مقلدين .

الفلسفة في الادب

من القصصيين وكتاب المسرح فى أوربا اليوم ، من ينزع الى ادماج الفلسفة فى الادب . فقصص ومسرحيات أولئك الكتاب لا تكتفى بتصوير مشاعر القلب وخلجات الوجدان والنفس ، بل يجنح أبطالها الى الفكر والتأمل ، أى الى معرفة معنى الالم ومعنى الحياة ، والغاية من الالم والغاية من الحياة .

فهذا الادب ولا سيما فى قصص « سارتر » و «كامو» ومسرحيات «بيكيت» و «يونسكو» وغيرهم ، هو أدب يصور انسانية تبحث عن كيانها المعنوى ، وتخاف فى غمرة المادة والتمتع أن تفقد هذا الكيان المعنوى وتفقد الحياة ، انسانية ترى ان الوجود هو العدم ، فتتخبط بين الوجود والعدم ، وتأبى مع ذلك الا أن تمجد الحياة ، وتحاول أن تكون حرة وقوية ، تقبل الوجود وتعيشه وان كان هذا الوجود هو العدم .

ولكن ادماج فلسفة العدم هذه فى الادب ، رغم مافيها من الاشادة بالقوة والحرية وتمجيد الحياة ، هذا الادماج قد يحدث العكس تماما فى نفس القارىء . فيبغضه فى الحياة ، أو يونسه منها وقد يدفعه الى الانتحار، أو يغريه بانتهاب اللذات فى أنانية مستهترة وقاسية . وهذا طبيعى ما دام ان العدم هو فى نظر أولئك الادباء نسيج الحياة وقانونها الاول والاخير .

أدب جديد

كتب « انطوان دى سانت اكسو بيرى » وهو طيار

فرنسي وأديب ، قصة شائقة وطريفة ، أبدع فيها أدبا جديدا هو دب الطيران .

ويمثل هذا الادب بطولة الطيار في اقتحامه الفضاء الغادر ، وتحديه ثورة العنصر واستهانته بالموت .

فالموت الواقف للطيار بالمرصاد ، يستنهض عزمه ، ويشحذ همته ، ويفتق حيلته ، ويهدد حياته ان تراخت منه العزيمة ، أو خبا فيه الفكر ، أو خانته القدرة على التيقظ والتنبه والحذر وضبط الاعصاب .

فهذا الصراع الذى يعيشه الطيار ، يخلع على هذا الادب لونا من الجلال والعظمة يلحقه بجوهر الادب الاغريقى فى تصويره الصراع الابدى بين الانسان والقدر.

ويمتاز أدب الطيران فوق ما تقدم ، بالهابه فى النفوس روح المسئولية وعزة الرجولة، والاندفاع فى تأدية الواجب كائنة ما كانت التضحية وبالغا ما بلغ الثمن . فالطيار الذى يعهد اليه بمهمة حربية خطيرة من استطلاع أو دفاع أو مهاجمة ، والطيار الذى يكلف بنقل مستندات أو ودائع أو بريد ، والطيار الذى يجوب الصحارى أو يحلق للكشف العلمى فى طبقات الجو العليا ، كل هؤلاء تحتل عقولهم تلك الفكرة العظيمة التى شاد عليها الانسان مجده ، وهى ان ليست العبرة فى تأدية الواجب ، بل العبرة فى التأهب الدائم لاستقبال الموت تأدية لهذا الواجب .

فكلما كان الواجب خطيرا ، شاق التأدية ، عسير التحقيق ، متطلبا مغامرة وتضحية كان أحفز للهمم وادعى الى الاغراء والتأثير .

تلك هى فلسفة أدب الطيران التى عبر عنها أبلغ

تعبير أنطوان دى سانت أكسو بيرى فى قصته المشهورة « طيران الليل » والتى ترجمت أخيرا الى لغتنا العربية.

فعلى القارىء أن يعود الى هـذه القصـة ، وأن ينعم النظر فيها ليرى من خلال صورها الرائعة المتعددة كيف تضطرم المشاعر عندما تلهبها دعوة الواجب ، وكيف تأخذ الانسان نشوة البطولة وهو يغالب العناصر ويواجه الموت ويتحدى القدر .

الادب وعصر السرعة

ان عصر السرعة الذى نعيش فيه اليوم يضع الادب الغربى بل والآداب العالميـة بأسرها فى أزمة خطيرة اذ يطبعها بطابع هذه السرعة نفسها .

فدور النشر فى أوربا وامريكا ــ وهى مؤسسات تجارية ــ لا تفتأ تلاحق الـكتاب والادباء ، ولاسيما من يشتهر منهم بعمل جيد وملفت للأنظار ، لا تفتأ تلاحقهم بطلب مؤلفات جديدة تغذى تجارتها وترضى ميول الغالبية العظمى من القراء مما لابد أن ينحط بجهد الاديب وبالغاية العليا من الادب نفسه .

فالاديبة الفرنسية « فرانسواز ساجان » حين أصدرت قصتها الاولى « مرحبا أيها الحزن » ، وهى عمل فنى ممتاز قوبل من النقاد بتقدير كبير ، ذاعت شهرة الروائية الشابة ، فتهافت عليها الناشرون ، وتهافتت أيضا عليها شركات السـينما ، تحثها على كتابة قصص أخرى .
فجعلت فرانسواز ساجان تضع القصة تلو القصة فى سرعة وارتجال ، الامر الذى باعد الشقة بين عملها الاول وأعمالها التالية ، وهوى بأدبها الذى كان يمكن أن يظل رفيعا ، الى مستوى الادب السهل الرخيص .

فعامل السرعة وطلب الربح مقرونين بنشوة النجاح هما آفة الادب فى هذا العصر لا فى الغرب فقط ، بل وعندنا أيضا .

بيد ان العمل الادبى الخليق بهذا الاسم يشبه الجنين، والزمن هو العنصر الاساسى فى تكوينه حتى بعد مولده كى يخرج مستوفيا شروط الحضانة والنضوج لا للساعة ولا لليوم ولا للغد ، بل للأبد .

ثقافة الشـــاعر

من شعرائنا من يعتقد ان الشعر هبـــة تستغنى عن الثقافة ، وان ليس على الشـــاعر الموهوب الا أن يطلق العنان لخياله ويرسل نفســه على سجيتها كي يبـــدع شعرا رائعا تتوافر فيه شتى عنـــاصر الصـــدق والقوه والحياة .

فهم يرددون أن الــكاتب الاجتماعى هو الذى يشعر بحاجته الى الثقافة المحيطة الشاملة ، ومثله القصصى. أما الشاعر فهــذه الثقــافة تقيـــــد ملــكاته العاطفيـــة والخيالية ، وتطبع شعره بطابع عقلى يباعد بينـــه وبين الانطلاقة الحرة والوثبة الفطرية التى يجب ان تكون هى وحدها المتحكمة فى شخصيته وفى أسلوب تفكيره وروح شعره .

وعندنا ان هذه النظرة لا تستند الى أساس سليم . اذ الملــكات والمواهب فطرية ولا شك . ولــكن الفطرة ، كائنا ما كان توقدها ، فهى مادة أوليـــة فى حاجة الى التفتح والتجمع حول مؤثرات تنبع من الواقع المتجدد الماثل فى مختلف تطورات الحياة .

وهذا كله لا يتأتى الا بالثقافة . فالثقافة هى التى تمد

الذهن بالآراء والافكار والمعلومات ، وهى التى تكشف للشاعر عما غمض عليه من شئون الدنيا ، وهى التى تعاونه على الاحساس بها والنظر اليها بصورة أدق وأعمق وأرحب ، بل هى التى توثق الرابطة بين خيال الشاعر والواقع الحى ، بحيث لا يجىء شعره مجرد شطحات وجدانية ، وأحاسيس مبتورة ، وعواطف هائمة مشوشة هوجاء .

أما الخوف من أن يطغى سلطان الثقافة العقلى على سلطان العاطفة والخيال فى نفس الشاعر ، فتعليل لاينهض كما أسلفنا على أساس . اذ الشاعر المطبوع هو الذى يعتصر خلاصة التفكير العقلى ويصبها فى مجرى العاطفة والخيال صبا طبيعيا لا اعنات فيه ولا تكلف ولا أثر من سيطرة العقل المثقف عليه ، والا كان شاعرا زائفا ، أو شاعرا مغلولا الى فطرته المحدودة ، لايستطيع أن ينفذ بشعره الى جوهر الانسان وحقائق الحياة الابدية .

ولقد أدرك هذا معظم شعرائنا النوابغ أمثال «ابراهيم ناجى » و « على محمود طه » و « صالح جودت » و « أحمد رامى » و « حسن كامل الصيرفى » ، فكانوا متفتحين دائما على الثقافة بلونيها العربى والعالمى ينهلون منها ويعبون فيها . فجاء شعرهم صورة لتمازج الفكر بالعاطفة دون طغيان من الفكر على عواطفهم وأخيلتهم ووحيهم الشعرى ، فأضافوا بذلك الى الشعر القديم ألوانا جديدة تعكس الكثير من جوانب حياتنا الوجدانية المتطورة .

أما شعراؤنا دعاة التحرر من القديم اطلاقا ، وتأثرهم فى ثقافتهم بمذاهب أوربية مستحدثة فى الشعر ،

واتجاههم فى شعرهم الى هدم كل ما هو منطقى ، والذهاب فى التصور والتصوير الى ما يكمن وراء العقل الواعى ، فهذه منهم محاولة نود مخلصين أن نقدرها ، وأن نتذوقها ، على شرط أن نجد أنفسنا حيال أشياء خليقة بالتذوق والتقدير ، لا حيال أشياء مبهمة وغامضة ومحفوفة بالألغاز والاحاجى ، تلقى بنا فى شتى المتاهات ولا نخرج منها الا متخبطين وتائهين وحيارى .

وما جدوى الشعر ان لم تستجب له مشاعرنا استجابة يشترك فيها الخيال والعاطفة والعقل أيضا بحيث نفهم ، ولو بشىء من الجهد ، ما يضمره الشاعر فى باطنه وما يقصد اليه .

ان الافراط فى الغموض يخنق الاستجابة . والانسان عندما يطالع الشعر يود أن يحس ذلك التبادل النفسى والعاطفى بينه وبين الشاعر كى يتأثر بشعره وينفعل به. فاذا امتنع هذا التبادل والتجاوب ، انفصل أولئك الشعراء دعاة الحرية المطلقة عن قرائهم ، وعاشوا فى ابراجهم العاجية لا يقرضون الشعر الا لبعضهم البعض.

الاديب تجاه المرأة والحب

الأدب شاعرا كان أم قصصيا ، يطلب الحب ، شعورا منه بأنه هو الذى يمده بالتجارب ، ويوقظ فكره وخياله ، ويجدد العالم فى نظره ، ويبصره بالخفى الكامن فى مشاعر الوجدان والقلب .

ولكن هل فى وسع الأدب أن يظل مكتفيا بحب واحد ، مخلصا لامرأة واحدة ؟.. الاديب الخليق بهذا الاسم ، يحرص قبل كل شىء على حريته . أما المرأة التى يحبها فلا ينشد فيها علافة حسية فقط ، بل ينشد

فيها ايضا صورة مثالية من السمو المعنوى ، بل من الكمال فى الخلق والوجدان والعاطفة . فهو يتطلع الى هذا الكمال ، ويصبو فى الوقت نفسه الى الحرية . والمراة قد توجه اليه الكمال غير انها تعجز فى الغالب عن تحقيقه ، كما تعجز عن التسليم بحرية الرجل الذى يحبها . وهذا طبيعى لان غاية المراة هى حيازة الرجل وامتلاكه ، وحبسه فى دائرة حبها ، مدفوعة بضعفها وخوفها وغيرتها ، ونزعة الاغراء الجنسى المتأصلة فيها .

والأديب يحس ذلك منها . فما أن يمعن فى الاتصال بها ، ويلمس على مر الزمن جوهر طبيعتها ، حتى يخشى من سلطانها على فكره وحريته وآماله وأحلامه وتطلعاته العليا . فيرتعد فرقا ، ويكافح ويجاهد ويتخلص فى النهاية منها . ثم يعود خياله فيستبد به . فيأخذ فى التنقل والتلهف والبحث عن امرأة اخرى ، عن مثله الاعلى ، عن المراة السامية النفس الكاملة الخلق التى تحبه وتسلم فى الوقت ذاته بحريته ، ولا تطغى عليه بحبها وأنانيتها وغيرتها . ولكنه لا يلبث أن يرتد خائبا وحزينا ، ويظل مع ذلك يتلهف ويتنقل ويبحث عن مثله الاعلى وهو يشعر انه مثل خيالى مستحيل التحقيق ...

فخيال الاديب اذن هو الذى يخلق المراة ، ومن خياله عنها يستمد قوة ابداعه فى تصورها وتصويرها . وهو قد يتعذب بحبها واستبدادها فيصورها شيطانا ، وقد ينجذب الى طهارتها وهى عذراء أو زوجة مخلصة ووفية ومعصومة من الزلل فيصورها ملاكا ، ويرى فى طهارتها حافزا لوحيه ومثارا لفكره وابداعه .

والواقع ان عنصر الطهارة هذا قد انجذبت اليه

وتعلقت به طائفة من كبار الادباء والشعراء ، واعتبرته رمز الانوثة فى نقائها الاصيل وفى ما يرتبط بهذا النقاء من معانى الخير والحق والجمال ، تلك المعانى التى تسمو بالفطرة البشرية وترتفع بها .

فالشاعر الايطالى العظيم دانتى ، قد استلهم الطهارة فى « الكوميدية الالهية » ومثلها فى عروس شعره « بياتريس » ، كما أستلهمها الشاعر « بترارك » ومثلها فى حبيبته «لورادى نوف» أما الشاعر الالمانى «جيته» ، فقد تغنى بتلك الطهارة أيضا فى مسرحية « فاوست » ومجد المرأة النقية بوصفها القوة التى يمكن أن تجرد الانسان من لوثات الفكر والجسد ، وتنقذه من عوامل التخبط والقلق والشك واليأس التى قد تعصف بحياته وتقضى عليه .

ومع كل هذا فالاديب الحق متى أحب امرأة ، فهو لا يمكن أن يتفانى فيها ، ولا يمكن أن ينسى فى حبها فكره وجهاده ورسالته. اذحبه للأدب لابد أن يستغرقه، ويتمكن من عقله وقلبه ، ويستولى عليه كأجمل واكمل امرأة ، ويصرفه عن سائر الأشياء ، ويلتهم حياته كلها !

من مطالعات

هذه مجموعة من الملاحظات تلقى أضواء كاشفة على بعض ما طالعت من أعمال لطائفة من المفكرين والادباء بين أجانب ومصريين .

مطالعات أجنبية

يعرف القراء الكاتب الفرنسى « أندريه جيد » مما ترجم له من قصص الى العربية ، أهمها « المزيفون » ، و « الباب الضيق » ، و «أوديب ملكا » .

ولقد كنت معجبا بأندريه جيد فيما مضى . ولكنى الآن وبعد أن عدت وأقبلت عليه وطالعت كل ما وضع من دراسات وقصص تغير رأيى فيه .

فهذا الاديب المنحدر من أسرة بروتستانتية طهرية ، قد اصطنع لنفسه شخصية تعمد أن يبدو بها رجلا منحرفا وثائرا ، متحرجا ومخالفا ، معترضا ومناوئا ، لايستقر أبدا على فكرة أو مبدأ أو مسلك ، ويظل يتقلب تقلبا لا تدفع اليه عوامل القلق الصادق والحيرة المضنية والتمزق الفاجع حيال الحقائق المتباينة المتضاربة ، بل تبعثه فى نفسه رغبة شيطانية فى أن يكون على الدوام مميزا على غيره بانحرافه الصارخ المستهتر المتحدى .

فهو يثور على الدين ، ويتمادى فى التحرر الفكرى ، والتحرر الجنسى أيضا الى حد الشذوذ والجسارة

الكلبية . ثم يشدو بالأغارقة ، ويمضى فى تمجيد رغبات الجسد والدعوة الى حب الحياة .

ولكنه فى فنه الروائى يناقض هذه النزعة تماما . ذلك لان الضوابط الكلاسيكية كانت فى عرفه المثل الفنى الاعلى .

فهو لفرط تشبثه بتلك الضوابط الكلاسيكية ، يبالغ فيها ويأبى الا أن تكون سيطرة مطلقة على العاطفة ، وكبحا اراديا للانفعال ، والتزاما جبريا بفضائل التناسب والتعادل والاتساق فى الشكل الفنى الظاهرى . لهذا لم يستطع أن يصور فى قصصه لا احتدام مشتهيات الجسد الثائرة فى أعماقه ، ولا فرح الحياة الجنسية الفطرية الذى يدعو اليه ، والذى يصوره على أكمل وجه « لورانس » الانجليزى مثلا .

فأندريه جيد فقير فى الابداع ، فقير فى الخيال ، فقير فى اتساع مدى الرؤى وفى القدرة على خلق عالم زاخر بالشخصيات المتمايزة .

وفقره يرجع الى اسرافه فى التعلق بتلك الضوابط الفنية الكلاسيكية ، مقرونا بدقته فى النظر، ودقته فى النقد ، ودقته فى التحرج ، وما يشيعه فى نفسه هوس الدقة والتحرج من خوف الانطلاق الذى قد ينزلق به الى الرومانسية .

وهو لشدة خوفه من كل انطلاق فى فسحات التخيل والعاطفة وعجزه عنه ، يتخذ من مزاجه الخاص قاعدة فنية عامة ، ولا يفتأ يردد أن ضبط الانطلاق هو الفن الامثل . فيمعن فى هذا الضبط ليكون كاتبا كلاسيكيا خالدا ، فيجعل من فنه فنا عقليا مجردا تستحيل معه

القصة الى هيكل عظمى عليه قشرة من لحم وفيه من الدم القدر الذى يمكنه به أن يتنفس .

والعجيب ان جيد كان يشيد كل الاشـــادة بشعر « بودلير » لما اشتمل عليه من ضوابط كلاسيكية محكمة. ولـكنه لم يتنبه الى ان تلك الضوابط لم تخنق فى بودلير لا حرارة العاطفة ولا عنف الانفعال ولا اتقاد الخيال بل زادتها قوة وروعة وتأثيرا ، كما انه لم يتنبه الى ان هذا الجمع بين الضبط الـكامل فى الشـكل الظـاهرى وبين الحرارة الانسانية العميقة فى الجوهر والمضمون ، كان هو الفن الخالد المثالى حقا ، وهو سر عظمة ذلك الشـاعر العبقرى .

وانا أستغرب من اندريه جيد كيف اقدم على كتابة القصة ، وكيف لم يدرك أن فضـــائل التحرج والدقة والضبط اذا كانت هى المنشودة فى النقد ، فالاسراف فيها يعوق سر القصـــة التى يجب أن تتدفق كالحياة وتهدر كمياه البحر .

ولقد أعجب جيـــد أيضا بدستويفسكى وتولستوى وستندال وكبار الروائيين الانجليز ، ولـكنه لم يتـأثر بهم ، ولم يعرف الحياة الا عن طريق دراســته لذاته الشخصية وما اكتسبه من مطالعـة الـكتب . فهو فى النقد نابغة ، ولا سيما حين يتخفف من تلك الضوابط الـكلاسيكية ويتحدث عن دستويفسكى او بلزاك . وأما قصصه التى لا يفتأ ينحتها ويهذبها ويصـقلها ، فعلى الرغم مما فيها من جمال الشكل ومتانة العبـارة وبلاغة الاسلوب ، تظل فى مجموعها الذى جمده الافراط فى ضبط المخيلة والانفعال ، بعيدة كل البعد عن قلوبنا وارواحنا ،

لا تصور العواطف المعقدة المتضاربة فى لجة الوجدان البشرى ، ولا تندمج أبدا فى جوهر الحياة الانسانية الكبرى .

❋❋❋

ولقد طالعت بعد ذلك دراسات مطولة للكاتب النمسوى «ستيفان زفايج » عن نيتشه وهولدرلن ودستويفسكى. فأخذ الدهش منى مأخذه وأنا أنعم النظر فيها . انها ليست دراسات نقدية . انها صور رومانتيكية لعباقرة يخلقهم زفايج وفق تصوره ، ويبالغ كل المبالغة فى رسم تفوقهم وهم يصارعون فواجع حياتهم ، ويخلع عليهم الوانا من البطولة الخرافية تحيلهم الى شخصيات روائية خيالية .

ولقد أحسست وأنا أطالع زفايج انه لا يبالغ فى تمجيد أولئك العباقرة ولا يسرف فى الاشادة بعبقرياتهم ، الا تعويضا لنقصه هو ، وتطلعا منه الى صورة للعبقرية يريدها أن تكون خيالية وخارقة لفرط تلهفه عليها وحسرته لتجرد حياته وأعماله منها .

فزفايج مثال الكاتب الذى عجز عن أن يكون عبقريا فى عمله ، فتصور العبقرية تصوراً خياليا شعريا خارقا يرفع من قيمته هو فى نظر نفسه ، ثم عكس هذا التصور على العباقرة الذين اشاد بهم . فلم يجعل منهم ابطالا انسانيين ، ولا حتى « سبرمانات » بل جعل منهم اشباه آلهة لا يمتون الينا نحن البشر بصلة .

❋❋❋

وأما ما قد أعجبت به واجتذبنى فهو كتاب للمفكر الباحث « هافلوك اليس » عن عقائد اليابانيين .

فهذا الـكتاب يكشف لنا عن طبيعة هذه الامة ، وعن أخلاقها وعاداتها ، كما يبصرنا بالعقائد الوراثية العميقة التى تتحكم فى عقول ونفوس أبنائها .

وأبلغ العقائد الدينيـــة تأثيرا فى حيـــاة اليابانيين هى العقيدة « الشنتوية » .

وأظهر ما فى هذه العقيدة هو الايمان بأن عالم الموتى يتصرف تصرفا عمليا مباشرا فى عالم الاحياء .

والشنتويون يطلقون كلمة « كامى » ، أى المتفوق أو الاعلى ، على الروح الانسانية التى تتوافر لها بعد الموت صـــفات خارقة للطبيعة . فالموتى أو « الـكامى» هم المتفوقون أصحاب تلك الصفات والقوى الخارقة ، وهم بالطبع أرقى منزلة من الاحياء ولـكن الاحياء يؤثرون فيهم بما يحدثونه لهم من فرح أو ترح ، من غضب أو رضى .

ويعتقد اليابانيون أن موتاهم يشتركون فى حيـــاتهم اليومية ويقاسمونهم آمالهم والامهم ، ويجلسون معهم الى مائدة الاسرة ، ويرعونهم ، ويغتبطون برخائهم ورخاء أولادهم . أما حفلاتهم من دينية وشـــعبية وعسكرية فيشهدها موتاهم أيضا ويسبح فيها بمجدهم وفضائلهم .

تلك هى العقيـــدة التى تصطبغ بها الحياة القومية اليابانية والتى تدفع بالفرد اليابانى الى احترام ذكرى أسلافه ، وتقديرهم ، وحبهم ، وحب الاسرة التى هى صنع أيديهم ، والوطن الذى يرمز اليهم ، والامبراطور الذى يمثل صفوة أرواحهم وجهودهم وما خلفوه للأحياء من عظمة ومجد .

ولم تؤثر الشنتوية وحدها فى تكوين الامة اليابانية ، بل ساعدتها فى ذلك البوذية أيضا . اذ الشنتوية ــ وهى

العقيدة الغالبة في طبقة الخاصة ـ تقول بوجوب انكار الفرد نفسه في سبيل أسرته ووطنه وامبراطوره أي في سبيل موتاه الذين شيدوا صرح أمته . وتقول البوذيه ـ وهي العقيدة الغالبة في طبقة العامة ـ بضرورة التجرد واحتمال الالم وكبح جماحه والتسليم بقانون تشتت المخلوقات المحبوبة وخلودها في أطراف الكون اللانهائية الغامضة .

فالشنتوية تربي الفرد على حب الاجداد ، وحب الوطن ، والبوذية تنمي فيه خصائص الاحتمال والتجلد ، وهذان العاملان هما اللذان يفسران روح التضحية والبطولة التي اشتهر بها الخلق الياباني .

حول فولتير وروسو

وكانت قد استهوتني في غضون ذلك أعمال المفكرين الكبيرين « فولتير » و « روسو » ، فعدت وطالعت طائفة منها ، ورحت أسائل نفسي : ما الفارق بين هذين الرجلين ؟..

وهذا ما انتهيت اليه :

كان فولتير هو الرجل العظيم الذي صنع في فرنسا وفي عصره كله ما يشبه المعجزات .

فهو نجم القرن الثامن عشر ، وهو الذي جاهد ما استطاع ليكسر شوكة التعصب الديني ، ويفضح ما ارتكبه الرجعيون في أوربا من جرائم ، وهو الذي حطم الاقطاع ، وسلطة الكهنوت ، وحث على تقدير مواهب النابغين من الفقراء أبناء الشعب ، ونادى بالمساواة المطلقة في الحقوق السياسية والاجتماعية ، كما نادى

بحرية الفكر ، وحرية الصحافة ، وحرية الاعتقاد ، وتكوين الدولة العلمانية ، مما مهد للثورة الفرنسية الكبرى ، ولما جناه ويجنيه منها العالم المتحضر حتى اليوم .

كان فولتير يؤمن بسلطان العقل ، ويذود عن العقل بوصفه القوة المشتركة التى تجمع بين الناس ، ولاينفك يدعو الى الثقافة الشاملة ، وتقدم الآداب والفنون ، مقترنة بالعلوم المادية التى تكفل اليسر والرفاهية للأفراد ، بحيث تتجه الانسانية نحو تطور مزدوج ، معنوى ومادى ، هو مثل الحضارة الاعلى .

وأما روسو فقد مهد للثورة الفرنسية هو أيضا ، ودافع عن حقوق الانسان ولا سيما فى كتابه « العقد الاجتماعى » ولكن روسو كان غير فولتير .

كان فولتير يمجد العقل الذى يجمع ، بينما كان روسو يزدرى العقل ، ويعلى من شأن الوجدان ، ويمجد العاطفة ، دون أن يذكر أن العاطفة لا تجمع بل تفرق ، وانها تختلف بين فرد وآخر ، وبين شعب واخر ، فتشوش خصائص العقل وتهدم أكثر مما تبنى .

ثم ان روسو أراد أن يعود بنا الى الحياة فى حضن الطبيعة أى الى حياة بدائية همجية ، أما فولتير فقد أراد أن يثقفنا ويمدننا ويدفعنا بالفعل الى فهم عواطفنا وضبطها ، والى التحكم فى قوى الطبيعة واستغلالها لمصلحتنا ورقينا .

ففلسفة روسو هى فلسفة متحركة تفتقر الى الدقة ، وأما « العاطفة » التى دعا اليها وأولع بها ، فهو لم يحدد معناها على وجه واضح . فتارة تكون العاطفة عنده

هى حاجة الانسان الى السعادة الارضية ، وتارة تكون هى حاجتـه الى الايمان بالله وخلود الروح ، وأخرى تتخذ معنى الاشراق الباطنى باعتباره رؤيا مباشرة من رؤى العقل أو رؤيا شبه صوفية تنبعث من وراء العقل ، وتكشف لنا عن حقائق كنا نجهلها .

وليس شك فى ان الانسان لا يكتمل الا باطلاق ممكناته العقلية والعاطفية ، ودعوة روسو الى العاطفة والاشراق الباطنى رغم ما فيها من شطط واسراف وازدراء لقيمة العقل ، يرجع اليها الفضل فى الاثر البالغ الذى أحدثته فى الحركة الفكرية « اللاعقلانية » الحديثة التى ترمى الى الهبوط الى أعماق النفس ، واستكشاف ما يكمن وراء العقل الواعى من ممكنات وقدرات .

ويرى الكثيرون ان منزع روسو الى العاطفة والاشراق الباطنى قد أثر فى فلسفة « برجسون » و « وليم جيمس » بل فى دراسات وبحوث «فرويد» حول العقل الباطن وأسراره وخفاياه .

ومع ذلك فسيادة العقل الواعى هى قوام حياة الفرد وقوام الحضارة ، ودعوة فولتير الى الاخذ بالعقل هى تثبيت لدعائم الحضارة .

فروسو كان مفكرا عاطفيا وانسانيا ، ولكن فى تصور شعرى رومانسى جامح تشوبه الاخيلة والاحلام ، أما فولتير فكان المفكر العقلانى الواقعى العملى وريث الاغريق .

وفى هذا يقول « نيتشه » :

« ان فولتير هو آخر رجل عظيم كانت له فى معالجة

الادب أذنا اغريقية ، وضميرا فنيا اغريقيا ، وبساطة وانشراح الاغريقيين ، وكان فوق ذلك آخر رجل تمكن من أن يجمع فى عبقريته بين حرية الفكر الرفيعة وبين القدرة على مغالبة الرجعية ، والترفع عن ممالأة غرائز الجماهير . »

عودة الى شكسبير

بين آونة وأخرى تنازعنى نفسى أن أعود فأطالع قصة أو مسرحية أنتقيها من بين الاعمال الادبية الرائعة التى ثبتت على الزمن ، وفرضت نفسها على العقل والوجدان والضمير البشرى .

والواقع ان هذه الاعمال مهما تقادم عهدها ومهما أبدع الادباء المحدثون من أساليب وأشكال تغايرها ، فستظل هى وحيهم الاول والضوء الساطع الذى ينير لهم الطريق الى مجاهل النفس الانسانية ومتاهاتها .

وهكذا عدت الى مطالعة مسرحية شكسبير الخالدة « مكبث » وانا انعم النظر فى الخصائص الذهنية التى امتاز بها الشاعر العبقرى مبدعها ..

ان معظم الشعراء يستخدمون خيالهم الشعرى للفرار من الواقع ، أو لاضافة عالم مخيل جميل الى عالمنا اليومى المحسوس . أما شكسبير فعلى نقيض ذلك تماما . ان خياله العاصف أوثق ما يكون صلة بالواقع . فكل صورة مجازية ترمز عنده الى حقيقة حية ، وكل استعارة خيالية تؤكد وتعزز حالة نفسية ، وكل معنى شعرى أو اخلاقى أو فلسفى يكشف النقاب عن الدوافع الانسانية العميقة التى تحرك شخصيات ابطاله .

فشكسبير لا ينسى انه قصصى ، وان القصة هى الحياة . لذلك هو يخضع خياله الشعرى لقانون الحياة ، أو هو بحكم فطرته وتكوين عبقريته لا يستطيع أن يحلق فى آفاق من الشعر الا اذا كانت هذه الآفاق هى نفسها آفاق الحياة .

وهذا الترابط الدائم بين الخيال والواقع نجده ممثلا أبلغ وأتم تمثيل فى مسرحيته مكبث .

واليك الآن صورة تحليلية لتلك المسرحية التى تعتبر مأساة حية لما يمكن أن يؤدى اليه الاجرام بدافع الطمع وشهوة السيادة والتغلب .

***

كانت فكرة الخطيئة الاصلية المنحدرة من العقيدة المسيحية متمكنة من العقول والنفوس فى القرون الوسطى . وما الساحرات اللاتى نشهدهن فى المنظر الاول من مسرحية مكبث الا رموز الابالسة ينصبون الفخ لمكبث ، ويحاولون اغراءه بالخطيئة . فهم يمثلون فكرة الاجرام فى خيال مكبث نفسه ، وكيف تولدت هذه الفكرة ، ونمت ، واستبدت بعقل الرجل .

لم يكن مكبث من النبلاء ، أو أصحاب المناصب الرفيعة ، وانما كان ضابطا مخلصا اشترك فى حرب عاد منها ظافرا ، فأسبغ الملك « دنكان » عليه آلاءه ، وجعل منه القائد المفضل بل الشخصية الممتازة المرموقة فى المملكة كلها .

هذا الحظ الطارىء أفقد البطل صوابه ، وأيقظ فيه شيطان الطمع ، وابتلاه بتلك النشوة الغادرة التى تصيب الفائزين أحيانا ، فتطوح بعقولهم ، وتعصف

بألبابهم ، وتمد فى أحلامهم الى آفاق بعيدة من المجد المطلق والسلطان الموطد المكفول .

تطلع مكبث الى العرش ، وأحس ان بينه وبين العرش كما بين يده ومقبض خنجره . ثم اضطرم خياله ، ولاحت له الجريمة ترفل فى حلل زاهية . فهفا اليها قلبه ، وأغرته بها نشوة النصر . ولكنه كان رجلا شريفا ، وكان يحمل فى أطواء نفسه ذكريات ماضيه الناصع البياض ، بل كان يشعر أبلغ شعور وأوفره ان هذا الماضى قد خلق ضميره الحساس خلقا ، وان لا سبيل الى خنق هذا الضمير مهما حاول ومهما أراد ... فهو قوى وضعيف ، شجاع وجبان ، بطل فى ساحة الحرب ومتردد متخلف فى ميدان الحياة ، لايكاد يفكر فى ارتكاب معصية حتى يستهول ويحجم ساعات ، ثم يتقدم كارها وينجز ثم يضطرب ويتخبط ويندم ويفيض قلبه بالحسرات .

هذه الشدة فى احساسه بالندم وتبكيت الضمير ، ترجع الى الشدة فى احساسه بالحق والعدل والخير ، كما ترجع الى شعوره المتأصل العنيف بأن حياته الماضية كانت صفحة نقية لم تشبها اية شائبة .

فهو رمز الرجل الذى يعمل مستريحا الى ماضيه ، مستمدا منه قواه ، ثم يفقد هذه القوى ساعة يدرك ان ليس فى ذلك الماضى البرىء ما يساعده على ارتكاب جريمة . فتذوب عندئذ ارادته ، وتضمحل عزيمته ، ويحس ضرورة الالتجاء الى شخص أقوى منه يستوحيه ارادة العمل ، ويستلهمه وحى العزم ، وطرائق التنفيذ ...

وهكذا لجأ مكبث الى زوجته ، الى اللادى مكبث ، وأسلمها قياده . فأحدقت به ، واندست فيه ، وخالطت منه الفكر والعاطفة ، ثم وضعت ارادتها موضـــع ارادته ، ودفعته الى الجريمة دفعا . فكانت هى الرأس المفكر ، وهو اليد الطيعة العاملة .

ولم يســــــاعدها على ذلك انها كانت أقوى منه شخصية وأوفر عزما وأثبت جنانا فحسب ، بل الذى ساعدها ، وشجعها ، وحفزها الى المغامرة والاقدام انها كانت امرأة قبل كل شىء . أى مخلوقا غريزيا يستسلم بجمعه لميوله ، ويسعى اليها من فوره ، ويتجه صـــوب هدف واحد دون اسراف فى التفكير ، أو اسراف فى مراجعة النفس وتقـدير العواقب وتقليب الامور على مختلف وجوهها .

فاللادى مكبث غاية وعمـل ، رغبة وتنفيذ ، جرأة واصرار . أما مكبث ففكر وضمير . والفكر يجســـم الاشياء ويستشعر نتائجها ، والضمير يشقى الانسان، ويعذبه ، ويدمره تدميرا بطيئا من حيث لا يدرى .

وهنا يجب أن نلاحظ ان اللادى مكبث عنيفة فى شهوة الاجرام ، ولـكنها ليست مجرمة بالفطرة ، ولا شريرة بالسليقة . ولم يشر شكسبير الى شىء من هذا فى أى موضع من مسرحيتــه . وأكبر ظنى انه مثل فيهـــا صورة المرأة المحبة لزوجها ، المخلصة له ، المعجبة به .

المرأة التى تحس بما يضطرم فى نفسها من عوامل التفوق ومن قوى الارادة ، فيعز عليها أن يكون قرينها المحبوب دونها عزما وقوة . فمـــا تزال به تصب فى عروقه من سيل ارادتها حتى تجعل منه المثل الاعلى لما تريد ان يكون عليه زوجها وسيدها ...

فالشر عند اللادى مكبث مكمل للأعجاب والحب ، ومنحدر منهما . وهو دليل الاخلاص كما تفهمه المرأة ... فعلى قدر حب اللادى مكبث واخلاصها لزوجها ، كان تماديها فى الشر واغراقهـــا فى تزيين الجريمة ، واستهانتها بالمخاطر والعقبات .

وكان أن أذعن مكبث لها ، واستبدت به شهوة المجد ، واحتواه شيطان الطمع . فاقترف الجريمة ، وقتل الملك « دنكان » .

وما أن قتل وفاز بالملك حتى أضحى فريسة الحيرة والقلق والخوف وتبكيت الضمير ...

وفى الليلة نفسها التى ارتكب فيها جريمته ، تمكن الرعب من نفسه ، وأحس كأنما هو قد خولط فى عقله ، وبات يرى أشباحا غريبة ، ويسمع أصواتا مزعجة ، توسوس له انه « قتل الرقاد البرىء » وانه لن يذوق طعم النوم الهادىء أبدا !..

ولكى يخلو له الجو ويتخلص من « بانكو » مزاحمه فى الملك ، دبر مكيدة لقتـــله هو أيضا وتخلص منه بالفعل ...

وظن مكبث انه سوف يستريح . ولكن الرعب عاد فطارده ، وجثم على صـــدره ، واحتل فكره . فكان يخشى كل حركة أو نظرة ، وينخلع ويرتعد لكل نبأة أو همس .

واشتد به هوس الرعب ، فاستنهض أمام عينيه شبح بانكو ، يهز رأسه الدامى ، ويتوعده ، ويسمم ساعات مرحه ، ويعكر صفو المأدبة العظيمة التى كان قـد تصدرها هو وزوجته .

وكان قد قتل بانكو خشية أن يصبح هذا الرجل ملكا فتتحقق نبوءة الساحرات . وها هو ذا الآن ، وبعد أن قتل مرة ثانية ، يخاف الجميع ، ويود أن يجهز على الجميع ... فلكي يأمن غدر المستقبل وينفض عن كاهله عبء الرعب الذى ينوء عليه ، أرسل طائفة من السفاحين يعملون حناجرهم فى رقاب أولاد بانكو وأولاد « مكدوف » وكل من يخشى منهم على نفسه وعلى العرش .

أراد أن ينسى الشر فى الشر ، ويخنق الرذيلة بالرذيلة ، ويتخلص من القتل بالقتل . فجعل يراكم جرائم فوق جرائم طلبا للراحة والاطمئنان ولكن على غير جدوى ...

ولفرط ايغاله فى الاجرام ، تبلد حسه ، وتفاقم ضعفه . فشاع فى نفسه ضرب من العجز والتواكل والتسليم . فترك الاقدار تتقاذفه ، ولم يعد يدرى كيف يكافح ويقاوم حتى جرده أعداؤه من معاقله وحصونه ، ولم يبقوا له غير قصر واحد هو قصر « دنسينان » ...

وعلى الرغم من تدهوره المطرد ، كان لايزال يؤمن بحظه ويؤمن بنجمه ، ويستخف بالمخاطر ، ولا يكلف نفسه عناء الاستماع لنصح العقلاء والمخلصين وارسال النجدات تنقذه من أعدائه . وذلك هو الدوار الفاجع ينتاب المجرم . فتختلط عليه الحقائق ، ويظن انمجرد اقتراف جرائم جديدة هو فى ذاته عمل ايجابى مطمئن، بينما الحقيقة انه محض تخبط يرجع بصاحبه القهقرى، ويعمى بصيرته ، ويزيده ضعفا على ضعف وخوفا على خوف .

وأما اللادى مكبث فمما يدل أبلغ الدلالة على أنها لم تكن شريرة بالسليقة ، وان الشر كان طارئا عليها ، وانها ما قامت بجهدها الارادى الجبار فى دفع زوجها الى الجريمة الاولى الا طمعا فى الجاه والسلطان ، أقول مما يدل على هذا أنها لم تشترك فى سلسلة الجرائم التالية ، وانها قنعت بما فازت به من سطوة ومجد ، وأنها حاولت تهدئة زوجها وطرد المخاوف والوساوس عنه . ولكنها لهذا السبب نفسه اى لانها لم تكن شريره بالطبع والفطرة ، ولان ماضيها هى الاخرى كان ابيض ناصعا ، ولانها لم تشترك الا فى جريمة واحدة . لهذا كله فقدت بدورها توازنها ولم تستطع الثبات والمجالدة فعصفت بها هى أيضا عاصفة الرعب ، واجتاحتها وزعزعت ارادتها وعقلها ثم شردتها فى ابهاء القصر الفسيح مذعورة مخبولة تحدق الى يدها ، وتتحسسها، وتبصر عليها بقعة الدم المخيلة فى ذهنها ، وتغمغم : « كل طيوب جزيرة العرب لا يمكن ان تمحو هذه اللطخة !.. »

ولا ينبغى أن نفهم مما أصابها انها وقعت كزوجها فريسة لتبكيت الضمير ، وانها ندمت على ما فعلت . كلا . فليس فى أقوالها أى شعور بالندم ، أو رغبة فى التكفير أو اشمئزاز من نفسها وما جنت . واذن فهى برغم اللوثة التى عرتها ، ظلت أقوى من زوجها معدنا ، واصلب ارادة ، وأقوى على المقاومة والكتمان ، لايضطرب ذهنها الا فى صميم الليل ، ساعة يرقد أهل القصر ، وتساورها الخيالات ، فتقذف بها من فراشها، وتسيرها وهى نائمة ، وتطلق من لسانها صيحات

الرعب . أما فى الصباح فهى مالكة رشدها ، حافظة قواها العقلية ، مهيمنه على شواغل النهار المتعددة . . . فالليدي مكبث لم تعرف تبكيت الضمير بمعناه الشائع . وكل ما فى الامر ان ذهنها انجذب الى الليلة التى ارتكب فيها زوجها الجريمة الاولى . فطفقت تتمثل وقائعها الرهيبة تمثلا محسوسا دقيقا ، يعذب المرأة فى عقلها ، ويعذب الانثى فى بدنها ، تعذيبا حيوانيا مجردا لا أثر فيه للندم أو الاسف أو التوق الى التكفير .

وتختم هذه المسرحية الرائعة بمصرع مكبث على يد البطل مكدوف عدوه اللدود .

وأعجب ما نعجب له فى هذه القصة ، مأساة الطمع وتبكيت الضمير ، ان ليس بين أبطالها من هو مجرم أصيل يهوى الشر للشر ، ويقتل للذة القتل . جميع أبطالها مساكين وتعساء ، يتعثرون بآثامهم ، ويتعذبون بها جسما وروحا ، حقيقة وخيالا ، عملا وفكرا . انهم كسواد الناس ، والاجرام دخيل عليهم . فما أصابهم يمكن أن يصيب كل واحد منا . وهـذا هو سر قوة المسرحية وعظمة شكسبير .

أبـــومنـــدور

لمحمد زكى عبد القادر

اذا كان فن القصة الرفيع يتمثل فى قدرة القصصى على استعادة ما تخلف فى نفسه من مؤثرات ماضيه ، وما انطبع فى خياله من مشاهد الدنيا ، وما عاناه فى حياته من تجارب ، وما ادخره فى ذهنه من ثقافات ، فهذه القدرة تبدو واضحة جلية فى قصص الاستاذ محمد زكى عبد القادر

ففنه ليس فن الخيال الملفق ، والعواطف الزائفة ، والحوادث المصطنعة ، بل فن البصر النافذ ، والملاحظة الدقيقة ، والتصوير الامين ، يسبح فى جو شعرى فاتن ، ويستمد نبضه واختلاجه من واقع حى .

فاحتضان هذا الواقع ، والقدرة على تصويره ، والكشف عن منابعه فى اعماق النفس ، والوصول الى جذوره المتغلغلة فى العلاقات البشرية ، بحيث يجمع الكاتب بين الواقعية والتحليل ومثالية العواطف فى وحدة متكاملة ، تلك هى السمات البارزة التى خلبتنى وملكت على مشاعرى وأنا أطالع للمرة الثانية قصة الاستاذ محمد زكى عبد القادر « أبو منبدور » .

ولهذا الـكاتب أسلوبه الخاص فى التأدية والتعبير. اسلوب تلتقى فيه الجزالة بالدقة ، ويكاد لشدة التحامه بالمعنى ان يكون هو والمعنى شيئا واحدا لا يتأتى انفصاله بحال . واما طريقته فى معالجة موضوعه ففيهـا من صدق التجاوب وحرارة الاخلاص ونفاذ الفكر ما يبعث على طول التأمل ، فيكسب القارىء ثراء معنويا يجدد به عقله ووجدانه ونظرته الى الحياة .

فقصة « أبو مندور » لا تصور فقط وعلى نحو فنى فريد ، حقبة هامة من حياة الريف المصرى الذى كانت معظم أسره الكادحة تعيش فى الماضى عيش الـكفاف والجهل والعبودية ، بل تصور فوق هذا عاطفة حب نشأت بين فردين من عالمين متباعدين بل متنـافرين ، أحدهما عالم القرية بكل ما فيه من بسـاطة الطبيعـة وصفاء القلب الى جانب الفقر والعبودية ، وعالم المدينة بكل ما فيه من صخب الحياة وزيف المشاعر الى جانب العز والجاه وأسباب الرفاهية .

والحق ان معرفة الاستاذ محمد زكى عبد القـادر بالريف واخلاقأهله وعاداتهم وتقاليدهم ، لاتكاد تدانيها فى عمقها واتساعها وشفافيتها معرفة كثير من كتابنـا سواء منهم من نشأوا فى هذا الريف أو من اتصلوا به اتصال جوار أو عمل .

فالاستاذ المؤلف يقـدم لنـا من طبائع أهل الريف المصرى صورا ناطقة يحفرها فى الذهن حفرا ، ويستعين على ابرازها بشىء من اللغة الدارجة التى لو عدل عنها فى بعض المواقف الى الفصحى ، لبهتت الصور تماما ، وزايلها اشعاعها المعين وألقها الجذاب .

وتدور حوادث القصة فى قرية من قرى مديرية الشرقية قبيل انتهاء الحرب العالمية الاولى ، حيث كانت تعيش أسرة « أبو مندور » عيش الكفاف على زراعة فدان أو فدانين استأجرتهما من التفتيش الذى يملك القرية أو يكاد .

وكانت « صبحة » وهى بنت من بنات الاسرة قد ضاقت ذرعا بحياة الريف وصبت نفسها الى حياة المدن . وكان قد تعلق بها « رفعت بك » ابن سعادة المفتش . ففافلت الفتاة أسرتها وانتقلت من القرية الى العمل فى المدينة فى منزل رفعت بك .

وثارت ثائرة أسرة أبو مندور ، وتخبط أفرادها فى البحث عن صبحة ، واستفاضت الاشاعات بأن ابن المفتش قد اختطفها بعد ان عين شقيقها محمود خوليا فى التفتيش .

وتلتهب الشكوك فى نفس محمود ، ولا يستطيع ان يتصور عرضه وقد استباحه انسان . فتشتد ثورته وتستحيل فى صدره الى مرجل يغلى . وفجأة وفى ذات صباح ، يستدعيه سعادة المفتش ويخبره انه سيرى صبحة ... ويلتقى الاخ بأخته فى منزل رفعت بك بالقاهرة . فيصر محمود على ان تعود الفتاة معه الى القرية . ولكنها ترفض ، وتنتقل من منزل رفعت الى منزل البيه الكبير . فيطمئن محمود ويتأكد بما لايدع فى نفسه مجالا للشك ان أخته قد استمسكت بعفتها ، وانها لايمكن الا ان تظل طاهرة الذيل ، نقية العرض ، حريصة على نفسها وعلى شرف أسرتها .

وكانت عفة الفتاة الاصيلة مقرونة ببراءتها الساحرة

قد أحدثت أبلغ الاثر فى نفس رفعت الماجن المستهتر العربيد . فأقلع الشاب تحت تأثيرها عن الخمر والميسر والنساء ، وصبت روحه الى جو الصفاء الرائع المنبعث من نفس صبحة

ولكن هل فكر رفعت فى الزواج من صبحة . لقد اقدم حقا على فسخ خطبته من سميرة بنت حسين باشا . غير انه رغم ذلك لم يجازف فى اختيار صبحة زوجة له ، بل لم يفكر فى هذا الامر أبدا . وأنى له ان يفكر فيه وهو الشاب الوجيه الثرى وهى الفتاة القروية الخاملة الفقيرة .

لقد كان يتصورها فى مبدأ الامر متاعا رخيصا . فلما استعصت عليه وتأثر هو بعفتها وطهرها ، وتأثرت هى أيضا بانجذابه اليها ، وأوشكت بدورها أن تنجذب اليه ، حار الشاب واضطرب فى فهم نفسه ، وفى اكتناه سر عواطفه ، وفى استنكاره الزواج من الفتاة بينما هو يشعر نحوها بتلك الجاذبية الغريبة التى بدلته واحالته من عربيد الى انسان .

وقوة القصة وروعتها تكمن هنا . فى هذا الخليط المتضارب من الانفعالات المنطلقة تارة والمحتجزة أخرى، الواضحة حينا والمستخفية أحيانا . فهل كان حبا ذلك الذى جمع بين صبحة وابن المفتش . وهل هى قد أحبته أم لم تحبه . وهل أحبها هو أم لم يحبها . أغلب الظن انها لم تحبه ، وأغلب الظن أيضا انه لم يحبها . بيد ان نوعا عجيبا من الشعور قد اتصل بينهما . فابن المدينة هفت نفسه الى صفاء الريف ، وبنت القرية صبت نفسها الى سحر المدينة . فكان

هذا الخليط من الانفعالات التى تضطرب حينا حتى توشك أن تكون حبا ، وتضطرب حينا حتى توشك ان تكون بغضا ... فكل من الشاب والفتاة كان ، على حد تعبير المؤلف ، « فى الظل » بين المدينة والقرية ، صبحة تشدها القرية وتفتنها المدينة ، ورفعت تشده المدينة وتخلبه القرية . ولم يستطع احدهما ان يتخطى « الظل » الى وهج الشمس فكانت مأساتهما .

على ان مأساة صبحة كانت أعمق وابلغ . فقد عادت الفتاة الى القرية ، ولكنها رفضت الزواج بمن ارادها . فهل كان ذلك منها عن حب لرفعت أم عن كراهية للزواج بقروى لا شىء فيه من ذلك السحر الحضرى الذى اجتذبها فى رفعت ؟..

هذا الغموض فى حركات النفس ، وهذا التوزع فى عواطف القلب ، بل هذا التحم بين الانجذاب والحب ، هو موطن الفن فى هذه القصة الشائقة التى تنتهى بموت صبحة بعد سنوات ، ودفنها فى القرية التى ارادت أن تفر منها ، فأبت أقدار غاشمة الا ان ترتد اليها ، وتلفظ فيها النفس الاخير .

هذه خلاصة لا تكاد تصور من القصة الا أقل القليل من اطارها الظاهرى اذ الروعة والجمال فيها يستندان أصلا الى توافر عوامل تلك القدرة الفنية التى أشرنا اليها ، مقترنة بقدرة الكاتب على ان يرتفع بالحدث العارض الى مستوى المأساة .

فالقصة هى قصة العواطف المهيضة تبدأ سيرها من صبحة أى من اكثر القلوب بساطة وصفاء ، الى رفعت اشد النفوس تعقيدا وزيفا ، مارة فى نموها وتشابكها

بكل ما يتهدد العواطف الخالصة من فوارق الطبقات ، تلك الفوارق التى تصنع المأساة الطـافحة بالمرارة ، العاجزة عن تجاوز منطقة الظل الى حيث وهج الشمس ونور الحياة .

وصفوة القول ان الاستاذ محمد زكى عبد القادر ، وهو الـكاتب الاجتماعى الـكبير والنـــاقد الاخلاقى المتفوق ، قد أثبت فى هــذه القصة انه روائى أيضا ، روائى مبدع ومصور فنان ، فى وسعه ان يدمج الخيال فى الواقع ، وان يضفى على الواقع اليومى تلك الحلة الشعرية الانسانية التى تمتاز بها الاعمــال الفنيــة الجديرة بالبقاء .

ديوان "ألحان مصرية"

لصالح جودت

الاستاذ صالح جودت شاعر رقيق الوجدان ، متقد العاطفة ، مشبوب الخيال ، تسبق معانيه الفاظه الى نفسك حتى لكأن هذه المعانى قد وثبت اليك واستقرت فى وجدانك قبل أن تؤديها الكلمات . وما ذلك الا لأن الشاعر يمتلك تماما زمام لغته . فلا يتعثر عنده معنى فى أذيال لفظ ، ولا يعجز لفظ عن تأدية معنى .

هذا الى عذوبة فى الجرس تدفعك الى ان ترفع صوتك مترنما بأبياته ، منتشيا بوقع نغمها الساحر فى أذنيك ، وصداها البعيد فى قلبك وروحك .

ولصالح جودت الى ذلك واعية فنية تلتقط أدق الجزئيات فى الحركة المحتدمة والصورة المتغيرة والمعنى المستتر ، فتبدو قصائده فى هذا الديوان وكأنها لوحات رسام نابغة ، يجد فيها الفكر والعاطفة والخيال منطلقا رحبا الى ما فى الوجود من حق وخير وجمال .

وصالح جودت يستلهم وحيه من شتى صور الحياة ، فهو تارة يتغنى بما يحسه فى الطبيعة من روعة وجلال ، وتارة يسبح فى أجواء روحية خالصة ، وأخرى يطلق العنان لمشاعره المصرية الصميمة فيبدع قصائد وطنية تشتعل حماسة واخلاصا وصدقا وتهز النفوس من الاعماق .

بيد انه وهو الشاعر الوجدانى لا يستطيع الا أن يختص المرأة بنصيب وافر من اعجابه وحبه . فالمرأة تجذبه بكيانها المحفوف بالاسرار ، تجذبه بحسنها ودلالها ، وتمنعها أو اقبالها ، أو بما تتخذ من ضروب فى المكر والدهاء تتمثل فيها أنوثتها المتلونة التى تعذب الشاعر وتضنيه ، فيسعد مع ذلك بها ، ثم يسرع ويسجل عذابه وفرحته فى مثل هذه الابيات العذبة الشاكية :

آمنت بالحب ، ولم تؤمنى
ويحك يا خائنة الاعين
طبيعة فيك ، ويا طالما
حاولت اثنيها ، فلم تنثن

***

قوامك الرائع ما راعنى
وشعرك اللامع ما همنى
ولا هفت روحى الى لذة
ابلغها من عودك اللين
أشهدها فى النظرات التى
تصدر عن وجدانك الهين
وكم تحايلت لاخفائها
فى شعرك الهادل كالسوسن
فانفلتت منه ، ففلفتها
بكسر جفنيك ، فلم تحسنى

***

أهواك ، لا انكر أن الهوى
مكمنه فى طرفك الارعن

يسـألني قلبي : وما سره ؟
أقول : لا أعرف ... يا ليتني
لعـله حـيرة ظني اذا
لم تظهري شـيئا ولم تبطني
أو اعتيـادي منك طول الجوى
كما تطيب الخمـر للمدمن
أو ابتـلاء الله لي بالهوى
هل يحمـل البلوى سوى المؤمن

***

لعلني اعشـق فيك الذي
لا التقي في عشـقه مأمني
وكل ما أعلمـه أنني
اهواك يا خائنـة الاعين !

***

وعندما يبصر المرأة وقد استيقظت فيها غرائزها الدفينة ، واستعر لهب أنوثتها الضارية ، وتجلت بكل ما في مكنون طبيعتها من ولع بالحياة ، وشغف بالمرح ، ورغبة محنكة في الاغراء ، يهتف الشاعر بهذه الابيات التصويرية الدقيقة التي يصف فيها راقصة غجرية ، والتي قل ان أبدع مثلها شاعر مصري حديث :

هاتي فنـونك في اصـالتها
غجرية ، همجيـة البـدع
قومي وضـجي ، وارقصي طربا
وتمايلي بالدف وانخـلعي
وارمي بشـعرك ها هنـا وهنـا
واغري بجسم صـارخ عرم

متنـــــاثر متطـــاير القطع
متمرد الاعطـــاف ، يلهبـــه
لون النحاس الاســـمر اللمع
وقفى ، ولفى كالرحى ، وقعى
واستنفرى ســـاقيك ناهضـــة

وتعلـــقى فى الجو ، وارتفعى
واغـــلى ، ودورى ألف دائرة
برشـــــاقة مجنونة السرع
واســـتظهرى المكنون من فتن
ترتج تحت شـــفائف الخلع !..

***

وأما حين تغزو قلب شاعرنا عاطفة حب تمس منه الشغاف ، يصبح الحب عنده نشوة عارمة يغيب فيها الحس ويتوه العقل وتضطرم المشاعر ، فيود أن ينطلق من ربقة الحياة اليومية الشائعة . فيتقد ذهنـه ، ويحتدم خياله ، فيأتى بالتشابيه والاستعارات الطريفة الخالبة كما فى هذه المقطوعة :

خليت فى الحب عقـــلى
فخل عقـــلك أيضـــا
دعنـــا نجن ونلهو
فى الـكون طولا وعرضـا
ونشعل الليـــــل نورا

ونحرم العين غمضـــــا
فـكارهو النـــور عمي
وعاشـــقو النوم مرضى
دعنـــا نذوق الجنى فى
كل المواسم غضـــــا

ونحسب القيـــــظ فيئا
ونبصر الجدب روضـــــا
ونعصر الشـــــمس خمرا
بجامهـــــا نتوضـــأ

ونشرع الحب دينـــــا
ونجعل الوصـــــل فرضـــا
ولا نطيـــع نبيـــــا

يشـيع فى الـكون بغضـا
لا يعـــــــرف الله الا
من يجعل الحب فيضا !

***

وحتى وهو على عتبة الخمسين ، لا يتهيب الحب بل يحس ان كيانه ممتلىء به ، وان الشاعر لا عمر له. فيخاطب فتاته بهذه الابيات البديعة الفذة التى يتوهج فيها لهب القلب والجسد فى شمس جانحة للغروب . فيجيش الحب فى أطوائها متحكما كالقدر ، ضـــاريا كالجوع ، متوثبا ، متلهفـا ، يقهر ضـعف الـكهولة ، ويأبى الا أن يظل مشتعلا بدم الشباب :

يا حلـــوة العشرين لا تفزعى
من همسة الخمسين فى مسمعى
أنا شـــــباب سرمدى المدى

أنا ربيـــــــع دائم المطلــــع
لا يكبر الشـــــاعر يا طفلتى

فعمـــره فى حسـبــــه الطيـــع
قلبى على العشرين قيـــــدته
فعمـــر قلبى ليس يجرى معى

أعيش بالشعر غرير الصـــبا
أمرح فى فردوســــه الممتع
وأبـــدع اللحن لــكى ترقصى

واصـــنع للعطر لتســـتروحى
وأعصر الخمر لتســـتمتعى
وأحتـــوى حبـــك فى خافقى

فأملك العـــالم فى أصـــبعى
وأفتح التـــاريخ كى تدخلى
شرفتــه من بابها الاوســـع !

***

وحين تنهض بينـــه وبين عروس شعره مختلف الحواجز والسدود ، تبرح به حيرة قلبه تجاه حبيبة يخالسها النظر ولا يستطيع ان يتصل بها . فيشتد ألمه

ويتمنى لو أن فى وســعه ان يتخلص من الحب والالم والمرأة التى يراها تحوم حوله أشبه بطيف أو تبرق فى ناظريه كنجمة بعيدة عزيزة المنال ، فيقول :

لا تســألينى متى أدنو وألقاك
بل اسألى الله ان انأى وانســاك
بينى وبينك ســد فوق طاقتنا

من شائعات واسوار وأشـــواك
يا جارتى ، كم طوينا ليلنا سهرا
كأننا فى الدجى أشبـاح نســاك

وليس ما بيننا الا قليل خطى
حفت بألف رقيب ســاهر حاك
طبيعة الحسن ان يشقى ببيئته
هل يزدهى الورد الا فوق أشواك

ثم يتفق ان يظفر الشاعر بمحبوبة أخرى . فيرتعد اذ يرى فيها الانثى اللعوب الرواغة المخاتلة . فتأخذه الشفقة على نفسه ، فيود أن يحطم القيد الذى يكبله ، أن يفر من جحيم حبه . ولـكنه لايستطيع الا أن يلوذ بهذا الوقود نفسه الـذى يحرقه ، أى يلوذ من المرأة بالمرأة نفســـــها ، فيعصف به غرامه ويصرخ فى لوعة ممزقة :

سيان ، ان أخلصت أو خنت
انى أحبـــــــك مثلما أنت
من أى طينـــــــة راهب نزق
يتعشق الدنيـــــــا تكونت ؟
فيك الخطيـــــئة والخلاص معا
يتـــــلونان . . . وكم تلونت
بطهارة العـــــذراء ذبت تقى
وبلهفـــــــــة الانثى تزينت
أنت الحيـــــاة ، وكنت أجهلها
أن الحيـــــــاة كما تبينت
ويظـــــل قلبى فى تعلقـــــــه
اما قســـــــوت عليه أو لنت
فاذا اختلفت ... صرخت من جزعى
متوســـــلا : عودى كما كنت !

***

وعنـــدما يجهد الشاعر فرط السعى وراء المرأة ، ويعذبه حبها المتقلب المتلون ، ويحس انها هى والحب قبض ريح وطيف خيال ، يتولاه كمد وحزن ، وتذوق روحه طعم الرماد . فيتغير وجه الحياة أمامه ، وتبدو

له الدنيا أشبه بصحراء مترامية لا ظل فيها ولا ماء . فينكمش على نفسه ، ويرسل هذه الانات فى غمغمة مريرة فاجعه ، وهو مع ذلك اشوق ما يكون الى فتنة الدنيا ومرح الحياة :

سراب ... وكل حياتى سراب
وفى وهمه قد أضعت الشباب
سراب ، وأسلمته خاطرى
فعللنى بالامانى الكذاب
وتابعته ، رغم يأسى به
ومعرفتى انه لا يصاب
يروح كمقترب فى ابتعاد
ويغدو كمبتعد فى اقتراب
وأجهدنى السير فى اثره
فلا القلب مل ولا العقل ثاب ...

***

ثم وهو يستشعر فراغ القلب وخواء الحياة ، يندفع كالظامىء المتحرق يبحث عن ينبوع ماء قراح يطفىء عنده غلة روحه . فيهرع الى باحة منعذة ، الى باحة فيها الطهر وفيها الصفاء . فيقف أمام ضريح ولى الله سيدى أبى العباس المرسى ، مناجيا اياه بهذه القصيدة التى غلبته فيها مع ذلك طبيعته كشاعر وفنان ، فمازج فى أبياتها بين دعوة الصفاء والطهر وبين مفاتن الدنيا وحب الحياة .

تحية يا « أبا العباس » من نفس
على شفاعتك الحسناء يتكىء
وانت من تجتبى للروح غايتها
من الصفاء ويجلى عندك الصدأ

ان كان ذنبى أنى ضعت فى نهمى
الى الجمـــال ، وعينى ليس تمتلىء
أو اننى فى اشتهاء الحسن ما برحت
نفسى تمور وقلبى ليـــــس ينطفىء
أو علتى اننى فى الحب عاصـــفة
من الجموح ، فأرشـدنى لمن هـدءوا
أسائل الزاهـدين الحسن ، أى ضنى
يســــترحمون عليه بعد أن برئوا لا
وأنت حارس هذا الحسن ، تنثره
على اضــعاف ، وتدنيه لمن هنئوا
أمضنى الذنب ، لـكن لم ازل كلفا
به ، فجئت الى مثــواك ألتجىء !

***

فأنت ترى مما تقدم ان صالح جودت شـاعر بكل ما يتمثل فى شخصية الشاعر من خصـائص نفسيـة وخلقية ، اذ هو رغم ما يكابده فى حب المرأة من عذاب ، ورغم ما ينتابه من ضجر وضيق واحساس طـارىء بأن المرأة والحب كلاهما محض وهم وسراب ، ورغم توقه المفاجىء الى الفرار مما يعانيه وارتمائه فى حضن الله ، رغم هـذه النوازع جميعا فصالح جودت يظـل الشاعر الذى يعشق المرأة جمـالا والهاما ، ويعشـق الحب قوة ووحيا ، ويعشق الدنيا بكل ما تزخر به من تجارب فيها الامل واليأس ، وفيها الفرح والالم ، وفيها الابتسامات والدموع .

وبعد هذا كله ، فصالح جودت الشـاعر هو أيضا مواطن مصرى ، هو فرد فى مجتمع معين ، هو فرد من

أمة مستقرة ، هو نبتة تمتد جذورها فى أرض ثابتة . فهذه الارض ، أرضنا المصرية المقدسة ، ليس فى مقدور المرأة أو الحب أن يشغلا صالح جودت عن التفكير فيها ، والشعور بعذاباتها ، والتطلع الى رفعتها ومجدها ، والتأهب للبذل والتضحية والفداء من أجلها . فالاحساس الوطنى عميق فيه ، متأصل فى نفسه ومتأجج بين جوانحه ، لايستطيع متى دعا الواجب واقتربت ساعة الثأر من الطغاة الذين يلوثون أرض الوطن ، الا أن يرسل غضبته العارمة فى هذه الابيات الفذة التى تتقد حماسة وحرارة وسخطا :

ارجعوا أيها الطغاة
آن أن نرفع الجباه
أطرقوا . . . شعبنا الكبير
بدأ الزحف والمسير
غاضبا ثائر الضمير
مدركا وحدة المصير
يخطب المجد والشرف
فاحذروه ، فقد عرف
وحدة الصف والهدف

***

ارجعوا أيها الطغاة
لن تمروا من القناة
فهى فى الحب خيرة
وهى فى الحقد منكرة
هى فى السلم قنطرة
وهى فى الحرب مقبرة

لا تداعت قنـــــــــاتنا
تفتـــــــديها حيـــاتنا
موعد الثـــــأر قد أزف

فاحـــذروه ، فقــد عرف
وحـــدة الصف والهــدف !

***

ارجعـــوا أيهـــا الطغـــاة
حقنـــــا ذروة الحيـــاة
حقـــدنا غضـــــبة الاله
مارد الثـــــأر قد زحف
فاحـــذروه ، فقــد عرف
وحـــدة الصف والهدف !

***

ويبلغ به الشعور الوطنى أقصى مداه ، فيصرخ :

هبوا لى سـيفا رفاق الـكفاح
أذد عن كرامة محرابنـــــا
وكيف أظل مكانى ، وهـــذا
عـــدو بلادى على بابنـــا ؟
فيـــارافعين لاعلامنـــــا
ويا حارســـين لاعتـــابنا

وراءكمــــو من رواسى القلوب
أســــود تزمجر فى غابنا
لسوف ترون انتفاض القعيـــد
يســابق وثبـــة اعقـابنـــا
وســوف ترون حمــاس الشيوخ
يفجر أعراق أصـــــلابنا !

هذا هو صالح جودت فى أبرز الالوان والصور الماثلة فى فنه . فهو الشاعر الموهوب الذى تتجلى فيه روحنا المصرية بكل ما فيها من رقة ونعومة وصلابة ، والذى ينطلق بيانه سمحا سخيا ، لا يكبله زخرف اللفظ ولا يستغرقه اندفاع الخيال ، بل يعبر عن عواطف ومشاعر حرة وصادقة تنفذ توا الى القلب لفرط ما تحمل من خوالج نفسية وانسانية ، يستجيب لها كل ذى حس مرهف يتعشق الفن ويهوى الجمال .

سلامة موسى
المفكر الإنسان

لمحمود الشرقاوى

كان المغفور له الاستاذ محمود الشرقاوى أديبا ومؤرخا نابغا . وكان زميلا لى أيام كنا نسهم فى تحرير جريدة « البلاغ » . وقد أعجب محمود الشرقاوى ب « الجبرتى » وتخصص فى دراسته . ثم اتصل بسلامه موسى ، وأولع بشخصيته وأعماله . فوضع هذا الكتاب عنه وأهدانى اياه . فبعثت اليه بهذه الرسالة :

أهديتنى كتابك : «سلامه موسى ، المفكر الانسان». فلم أكد أطالعه حتى راعنى منك وفاؤك للرجل ، وشدة حبك له ، وصادق اعجابك به ، وقدرتك على دراسة أعماله واثبات فضله على النهضة الفكرية والاجتماعية فى شرقنا العربى .

ولقد أيقظ كتابك فى ذهنى جميع صور الماضى البعيد . فذكرت أيامنا فى جريدة « البلاغ » ، وكيف كنا نعمل ونكافح مع سلامه موسى ، وكيف كان سلامه فى مقدمة الصفوف ، يذود بقلمه ولسانه عن كل جديد فى الادب والعلم ، ويدعو الى نهضة شاملة تبعث الشرق من رقاده وتحكم الصلة بينه وبين العالم المتحضر الحديث .

وكنت أنت اذ ذاك في الطليعة أيضا ، فتى مشبوب الفكر والقلب والروح ، تسهم في النهضة بقلمك وشبابك ، وتنشد الخلاص من كل قديم يكبلك ، وتطمح الى تحقيق مثل أعلى لشعبك وبلادك .

وكنت أنا أتعقبك بالملاحظة والحب والامل . فكان يزداد حبي لك ، وأملي فيك ، وثقتي في المستقبل الزاهر الذي ينتظرك ، كلما رأيتك تمعن في الاتصال بسلامه موسى ، وتمعن في مطالعة أعماله ، وتشرب عقلك واحساسك أفكاره ومبادئه .

هذا الاندماج المعنوي بل هذا الاخاء الروحي ، هو الذي يسر لك اليوم الكتابة عن الرجل بمثل هذه الحرارة وهذه الاحاطة وهذا التمكن .

والحق انك لم تترك شيئا ولم تغفل ذكر شيء . فقد تناولت الرجل من شتى جوانبه . فصورت فيه المفكر الثائر والبطل المغامر والانسان الشهيد ، تصويرا ألهبه اعجابك ونبلك ، فجاء متقدا بالحركة ، نابضا بالحقيقة ، مختلجا بالحياة .

ولقد وقفت أنا اللحظات الطويلة أتأمل شخصية سلامه موسى كما رسمتها انت ، وأحاول أن أستعين بها على تحديد منزع الرجل ومكانته . فاستخلصت منها ان سلامه موسى كان ذهنا موسوعيا فريدا وعلى احاطة شاملة بمعظم المعارف التي اهتدى اليها الغرب في عصره .

لم يكن مفكرا خلاقا مبدعا . ولكنه كان رسول الغرب الى أمته يحمل اليها حضارته ونوره .

ففكره كان رجع صدى الغرب ، وقيمته في الوثبة

التى أراد أن يحطم بها الرجعية وينقل بها الشرق الى الغرب .

***

والواقع ان عنف وثبته مقرونا باتساع ثقافته ، أحدث أبلغ الاثر فى الشرق العربى ولا سيما فى مصر التى وجدت فيه رائدا فذا ، هداها وأرشدها الى كل مستحدث جليل فى الفكر الاوربى ، من اتجاهات أدبية، ومكتشفات علمية ، ومذاهب سياسية ، أصبحت اليوم جزءا من ثقافة مصر وحافزا من حوافز نهضتها.

فسلامه موسى يشبه من بعض الوجوه مفكرى القرن الثامن عشر فى فرنسا أمثال «ديدرو» و «دالامبير» ، اولئك الذين وضعوا الموسوعة الفرنسية الشهيرة ، وحشدوا فيها مختلف ألوان الثقافة والفكر ، ومهدوا بها للثورة الفرنسية التى قضت على الرجعية ونادت بالحرية وأعلنت حقوق الانسان .

على أن ما امتاز به سلامه موسى فوق ما تقدم هو خلقه . هو اخلاصه العميق لمنزعه ، وتعلقه المثالى بمبدئه وحرصه الشديد على عفته وطهارة يده ، وارادته الراسخة فى الدعوة الدائبة لفكره مهما تحمل من تضحية وكابد من عذاب .

وهذه الصورة الرائعة قد جلوتها انت يا أخى فى ابهى ظواهرها ، ورسمتها بريشة الفنان المبدع الجامع . فخلدت بها الرجل ، وكنت انت نفسك فى كتابك مثلا وقدوة فى الحب والنبل والاخلاص والوفاء .

ذكريات من عالم المحاماة والقضاء

للمستشار تادرس ميخائيل تادرس

المحامى أو القاضى أو المستشار ، كلهم يندمج في الحياة العامة ، ويعرف الناس فى بؤسهم ونعيمهم ، فى كذبهم وصدقهم ، فى خبثهم وبراءتهم ، فى شتى المآسى التى يصبها القدر عليهم ، أو التى تثيرها غرائزهم وشهواتهم فتوقعهم تحت طائلة القانون وتجعلهم هدفا للعقاب . ولكن ليس فى وسع كل محام أو قاض أو مستشار أن يلتقط من تلك الحوادث والمآسى ما يعبر عن شخصيات أصحابها ، ويكشف عن مكنون نفوسهم ، ويميط اللثام من خلال عواطفهم وأهوائهم وتصرفاتهم عن جوهر الطبيعة البشرية ، وأن يدون هذا كله فى كتاب ... يجب أن يكون المحامي أو القاضي أوالمستشار على ثقافة واسعة ، ونظرة ثاقبة ، وموهبة فى الملاحظة أصيلة ، وان تكون له قدرة على تخيل الواقع وتصويره وتسجيله تشبه تلك القدرة التى يمتاز بها الاديب الروائى الفنان .

وقد عرفنا فى تاريخ الادب رجالا تفوقوا فى ميادين السياسة والقانون ، وكانوا فى الوقت نفسه أدباء وفنانين . أمثال رئيسي وزراء انجلترا « تشرشل »

الذى أقدم على وضع قصـــــة ، والوزير الانجليزى « دف كوبر » الذى ترجم لبعض العظماء ، ورئيس وزراء فرنسا « ادوار هريو » الذى أولع بالموسـيقى بتهوفن فوضـــع عنه أروع كتاب ، والمحامى الفرنسى « موريس جارسون » الذى اســتخلص من محاضر البوليس ومن مختلف القضايا التى صادفته قصصـا زاخرة بالحياة ، وزميله المحامى « هنرى روبير» الذى سجل أشهر قضايا التاريخ فى مؤلفات أحرزت شهرة عالمية وجرى ذكرها على كل لسان .

هذه النزعة الادبية عند رجال السياسة والقـانون فى أوربا ، لم ألحظها فى زملائهم عندنا الا نادرا . وهذا ما اجتذبنى وراعنى فى كتاب « ذكريات من عالم المحاماة والقضاء » للأستاذ تادرس ميخائيل تادرس المستشـار السابق بمحاكم الاستئناف والمحامى السـابق بالمحاكم المختلطة .

فى هذا الكتاب الفريد من نوعه ، المستقطر من خلاصة تجارب صاحبه ، الشبيه فى بساطة أسلوبه وبعد مرماه بأجمل وأكمل نظائره من أعمـال كبار رجال القـانون والادب الفربيين ، فى هذا الـكتاب يعرض المؤلف طائفة من ذكرياته فى نشأته وصباه ، وكيف كان مولعا بالقانون منذ نعومة أظفاره ، وكيف اقتحم فى ثقة عالم المحاماة ، واصطدم بالموكلين وعركهم واستطاع فى ضوء ما لاحظه عليهم واستخلصه من أخلاقهم وطباعهم ، أن يقف على أسرار النفس البشرية وينفـذ الى أبعد أغوارها ... ويتطرق المؤلف بعد ذلك الى البحث فى علاقة علم النفس بالقضاء ، فيبدع فى هذا الفصل ابداعا ينم عن دراسة

سيكولوجية وافرة ، تدعمها الحوادث والمشاهدات المنتزعة من صميم الواقع . ثم يتحول الى النظر فى المحاكم المختلطة فيشرح لنا كيف كانت أنظمتها وتقاليدها ، ويؤكد ان التخلص من سيطرتها ونفوذها كان هو السبيل الاول نحو الحرية والاستقلال ثم يحدثنا عن الصحافة وعلاقتها بعالم المحاماة والقضاء ، ويقول ان محررى الصحف لو تعمقوا دراسة القوانين وحيثيات الاحكام وأسباب الجرائم ودوافعها بدل الاكتفاء بمجرد ذكر تلك الجرائم وتسجيل وقائعها ، فان الصحافة ترتفع وترتقى ويصبح فى مقدورها أن تسهم اسهاما ناجحا وفعالا فى ردع الشرير عن شره ، وتهذيب الميول الجامحة ، والنوازع الشاذة ، والسمو بالفرد والمجتمع .

فأنت ترى مما تقدم أن المستشار تادرس ميخائيل تادرس قد استحدث جديدا فى الفكر العربى ، وان كتابه من الطرافة والعمق بحيث يجب أن يقرأه وينعم النظر فيه كل قانوني وكل أديب بل كل مثقف يهوى المعرفة وينشد الحقيقة فى مجالها اليومى الحى .

عندما تحب المرأة

لحلمى مراد

الاستاذ حلمى مراد من أدبائنا النوابغ الذين أسهموا بجهد متصل فى تطور الادب والفكر فى مصر والشرق العربى . فقد أنشأ مجلة « كتابى » وأصدرها أعواما طويلة ، وزود قراءها بالشائق الطريف من مقالاته وبحوثه ، وبالمميز المختار من ملخصات الكتب الاجنبية ، وبالرائع الخالد من عيون الادب العالمى، التى أفرد لها سلسلة مستقلة هى « مطبوعات كتابى » ونقلها الى العربية هو نفسه أو عهد بنقلها الى صفوة من المترجمين ، فأنار للأدباء العرب طريق الفن العالمى ، وأسدى الى الحركة الادبية فى بلادنا أجل الخدمات .

على ان للأستاذ حلمى مراد شخصيته الذاتية ، تتجلى فى ولعه بالفن القصصى ، وفى أسلوبه وطريقته فى معالجة هذا الفن .

وهو بالطبع والمزاج قصصى أصيل ، مرهف النظرة ، دقيق الملاحظة ، وثاب الخيال ، ينزع الى اللون العاطفى الذى يصور مشاعر القلب ، ومنازع الحس، وخلجات النفس والوجدان .

ونحن فى مجموعته القصصية الاخيرة « عندما تحب المراة » ، نلمس هذا اللون المحبب اليه ، ينبض بشعر

العاطفة والروح ، ويتقد حركة وحرارة وحياة .

ففى قصة « أيها الربيع ترفق » ، نستشعر ذلك الاسى الناعم لعاطفة بكر كتوم ظلت تخفيها بطلة القصة « ليلى » عن حبيبها الطبيب الشاب . فدفعه كتمانها وعدم تبصره بقوة العاطفة التى تضطرم فى كيانها ، الى التحول عنهـا والاسترسال فى هوى صديقتها «عايدة»

التى تعرف اليها عن طريق ليلى . فأحست ليلى ان انطواءها وتكتمها كانا شرا عليها ، وان صـديقتها قد سلبت منها حبيبها . فاسودت فى وجهها الدنيا ودب فى نفسها اليـأس فانتحرت . فانخلع قلب الطبيب الشاب ولم يستطع ان ينعم بالسعادة قرب عايدة وبينهما جثة ليلى المنكودة التاعسة .

فهـذه القصـة رغم رقتها وما يشيع فيها من جو عاطفى حالم ، قد عبرت أبلغ تعبير عن سطوة المشاعر العنيفة اذ تعصف بالقلوب الغضة ، فتختم على البصر والبصيرة ، وتجرد الانسان من قدرته على تحقيق آماله وتذليل ما يعترض تلك الآمال من صعاب .

فضعف الارادة هو الذى أودى بليلى ، والدعوة الى القوة والارادة هو هدف القصة ، وهو الصرخة المنبعثة من بين سطورها ، تستنهض عزائمنا وتهزنا من الاعماق .

وأما قصة « الرد خالص» فتدور حول فتى وفتاة ، أوجس كلاهما من الزواج بالاخر لان كلاهما كان يخفى حقيقة مكانته الاجتماعية عن الآخر ، ويلقى فى روعه انه من ذوى الجاه والثراء . ثم ينكشف الستار أخيرا عن مكانتهما الاجتماعية المتواضعة ، ويتغلب الحب ويظـل ثابتا وقويا بعـد أن ينهـار ذلك الحائط الوهمي الذى

صنعاه كلاهما مدفوعين باغراء المال والجاه ، والتعلق بالمظاهر والافتتان بها .

فالقصة درس أخلاقي يحفزنا الى الصدق والصراحة، ويعلمنا كيف نعتز بحقيقتنا وبما فينا من مشاعر ونوازع طيبة وسامية ، لا بما تتطلع اليه أهواؤنا من زيوف الحياة وأباطيلها .

فالحب هنا يقهر فى النهاية سلطان المال ، بل يصبح هو نفسه ثروة ، فيكسو وجه الدنيا فى نظر المحبين الصادقين طبقة من ذهب .

***

وأما قصة « رجل له ماض » فترتفع بنا الى مستوى التحليل النفسى . وهى فى الحق وثيقة حية ، تكشف عما يمكن ان تحدثه فى نفوسنا مفاسد الماضى ، تلك المفاسد التى تظل تلاحقنا فى قوة ، وتطاردنا فى عناد ، وتحول بيننا وبين الحياة المستقرة الخصبة يوم ان نفكر فى الزواج ونطمع فى الاخلاص لامرأة واحدة .

فبطل هذه القصة عاش حياة زاخرة بألوان العبث والاستمتاع . فباتت كل امرأة فى نظره شبيهة بأولئك النسوة الخليعات المتبذلات المتلونات اللاتى عرفهن فى مطلع شبابه . فلما أقدم على الزواج خيل اليه ان امرأته على غرارهن . فراح يشك فيها هى البريئة ويسرف فى الغيرة عليها ويعذبها . فاستحالت الحياة بينهما الى جحيم . فطلقها ، واقترن بأخرى . فعذبها وتكررت المأساة فطلقها أيضا واعتزم الا يتزوج . ولكنه احس ان حاجته الى المرأة كحاجته الى الخبز . فتعلق بفتاة صغيرة شبه طفلة وأحبها حبا خالصا . بيد انه أشفق عليها من نفسه ومن ماضيه الذى يطارده ومن يقينه

بأنه لو اقترن بها فلا بد ان يعذبها كما عذب زوجتيه الاولى والثانية . فلم يجد سبيلا الا ضـــبط النفس ، وكبح العاطفة ، والتراجع والفرار .

وعندى ان هذه القصـــة هى من أجمل وأكمل ما فى المجموعة ، تمتاز بالتحليل البارع ، والوصف الدقيق، وتصوير شتى الانفعالات التى تســـاور انســـانا مكبلا بماضيه الملوث ، ومستبصرا به تماما ، وعاجزا مع ذلك عن الفكاك منه .

ونجد فى سائر قصص المجموعة ذلك الاســـــلوب السلس الرقيق ، وتلك اللمســـات الواعية الذكية ، تقترن فيها النعومة بالدقة فى التحليـــل والبراعة فى العرض والاداء .

روح هائمة

لفاوري عبد الملك

تلقيت بالبريد هـدية هى ديوان « روح هائمة » للشاعرة السكندرية « فلورى عبد الملك » . ولم أكد أقرأ بعض قصائد الديوان حتى أخذت بما فيهـا من طرافة وتجـديد ، فطالعت الديوان كلـه . فازددت اعجابا ، وآليت على نفسى أن أنصف الشاعرة النابغة بكلمة ، وان ألفت اليها أنظار القراء .

لا أثر للتكلف فى شعر هـذه السيدة ، ولا للولع بمحسنات اللفظ وجلجلة الصياغة وبريق الـكلام. بل بساطة عذبة رقيقـة تنبع من نفس ناضرة ، وروح حائرة ، وشعور صادق مقرون برغبة حارة فى تعقب المشاعر النسوية الواقعية الحية ومحاولة رسمها تارة فى لوعة وأسى ، وتارة فى عنف واتقاد .

انه شعر امرأة . امرأة ضاقت ذرعا بنفسها ، فهى تريد أن تصور شيئا فى نفسها ، وفى نفوس الـكثيرات من مثيلاتها ، أى تصـور امرأة مصرية تعيش اليوم بيننا ، حائرة بين حضـارتين ، موزعة بين مرحلتين ، متخبطة بين عالمين، متلهفة على الفكاك من أسرها الفكرى والوجدانى ، والظفر بحقها العادل المشروع فى الحياة .

فهذه المرأة المصرية التى تصـورها لنا الشـاعرة فى معظم قصـائدها ، هى امرأة متعلمة ونزاعة الى الحرية.

ولـكنها معذبة ومقهورة ومخنوقة ، يفرض عليها كل من حولها عادات وتقاليد الجيل القديم ، وتحس هى فى أعماق ذاتها ما تخلف فيها من مؤثرات تلك العادات والتقاليد ، فترزح بالرغم منها تحت وطأتها ، فتكبح مجبرة عواطفها المستقلة ، وتكبت أفكارها ومشـاعرها الخاصة ، وتظل متنبهة الى كل حركة أو اشارة تصدر عنها ، خشية أن تصطدم بأوضاع مجتمع ماتزال الغالبية فيه تقيم أكبر وزن لتلك العادات والتقاليد .

فالعواطف تغلى فى صدرها ، وارادة الانطلاق تحتدم فى دمها . فتود ان تنـدفع وتثبت وجودها وشخصيتهـا ولـكن لا فى الشر بل فى الخير ، أى فى حيـاة عزيزة وكريمة ، تجمع بين الحـق والواجب ، بين الحرية والمسئولية ، فتحس ان هى أقدمت وغامرت وأعربت عن فكرها ومنزعها فى مسلك حر صريح ، انها قد تتهم فى نظر المحافظين والرجعيين بل وفى نظر المجتمع كله بالترخص والتبذل والاستهتار والتحدى . فتنطوى على نفسها ، وتتعذب بانزوائها وكبتها ، وتصرخ فى هـذه المقطوعة التى أسمتها الشاعرة « وراء الجدار » معبرة بها أصدق تعبير عن مبلغ ضيقها وهمها :

حيـاتى لحون
وخفـق حزين

وحـيرة نفس وراء الجـدار
بكلتـا يدى أدق عليـه
اذا ضـقت يوما بحر النحيب
ويصرخ قلبى ويفضى اليـه
فلا يتـداعى ولا يستجيب

ويحـــجب عنى
رحيب التمـــنى
فأذوى بهمى وراء الجدار . . .

وتمضى الشاعرة فى هذه القصيدة الشائقة ، فنسمع خفق فؤادها الحبيس ، ونحس حيرة نفسها الملتاعة ، ووهج نحيبها اللافح . فنعتقد ان أجنحتها الواهنة قد تكسرت ، وانها باتت تستعذب العيش فى ظلمة الاسر والوحدة والضيق والعذاب . ولكنها سرعان ما ترتد الى نفسها ، وتستنكر ضعفها واستخذاءها . فتهيب بكرامتها وكبرها ، وتطلق العنان لمشاعرها فى هـــذه المقطوعة الفذة « ثورة نفس » التى تجمع فى نشيـــد واحد بين عنف اليأس والضيق، وعنف الانطلاق والتمرد:

أود لو ضحكت
لهمسة الحنـــان
فدمعتى وضـحكى
ارادة الزمـــان

أود لو رقصـــت
كخفقـــة الفؤاد
أود لو قبعـــت
كـكتلة الجمــاد
فرقصتى كصـمتى
كلاهما عنـــاد
أود لو أعيـــش
طليقـــة الجناح

أود لو أمـــوت
ثخينـــة الجـراح
فعيشـــتى وموتى
فى قبضة الرياح !

ومع ذلك فالشاعرة أو المرأة المصرية المتعلمة المكبلة التى تمثلها الشاعرة ، لا تستطيع أن تعيش دون عزاء ، فتراها وقد برحت بها عوامل الحيرة والكمد واستحال عليها ان تعثر فى محيطهـــا على من يعترف بقيمتها وحقها ، ترتد مكرهة الى هذا المحيط نفسه ، أى الى أسرتها وبيتها وأولادها ، وتجاهد جهاد المستميت كى تجد فى البيت والاسرة والاولاد مثارا لشعرها ، تنفس به عن صدرها ، وتنسى بوساطته أغلال فكرها وقلبها .

فترسل قصائد شـــاكية ومريرة وقريرة ، تسكبها كالبلسم على جراحها ، وتتغنى فيهـــا بالوفاء الزوجى الثابت ، والامومة الخصبة المباركة ، والبيت الساكن الامين ، فتذكرنا بالشاعرة الفرنسية الكبيرة « هنريت شاراسون » التى عاشت هى الاخرى فى وسط يوجس من الحرية ، وتتجاذبه مؤثرات القديم والحديث . فلم تجد ملاذا لروحها الا فى وســـطها نفسه . فتحولت بشعرها الثائر الى التغنى بالبيت والاسرة والاولاد .

فهذا الديوان هو صورة حية تسجل العذاب الذى تعانيه المرأة المصرية الممتازة ، اذ تبصر نفســـها مكبلة بالتقاليد ، فى حين ان غاية ما تصبو اليه هو امتلاك حريتها مع احتفاظها بشرفها وكرامتها وعزة نفسها .

وفى هذه النزعة المزدوجة النبيلة تتمثل قيمة الديوان

أضواء على الحياة

أهدافنا . . .

حياتنا تتحلل كل يوم أمام عيوننا وتنقضى فى مطالب ومشتهيات تتفجر من غرائزنا وكثيرا ما تنحط بنا .

فقوتنا فى أن نقاوم هذا التحلل اليومى ، فى أن نجد هدفا ساميا لحياتنا ، فى أن نتشبث بهذا الهدف ما استطعنا ، بحيث لا تثنينا عنه أية خيبة تحل بنا . اذ الخيبة هى رمز التقلب الذى هو طبيعة الحياة ، والثبات هو رمز الارادة البشرية التى تغالب الحياة ، وتغالب الخيبة والحسرة ، وترتد الى الهدف حتى تحققه ، أو تستجمع قواها لو استحال تحقيقه ، وتتجه فى عزم واصرار نحو هدف نبيل جديد .

سجن الماضى

لا يجب ان نسرف فى الاشادة بماضينا ، ونردد ان المجد كله قد اجتمع فيه ، وان عظماء تاريخنا هم أمثلة أبدية للكمال الاعلى .

يجب أن نذكرهم ، وننعم النظر فى أعمالهم ، ونقدر ولا ريب جهودهم ، لا لنرتد اليهم وننحو نحوهم ، بل لنجاوزهم ونكون اليوم وغدا أعظم منهم .

ان ماضينا قد يصبح سجنا لنا . وهذا السجن لو الفنا التقلب فيه ، واستعذبنا الحياة بين جدرانه وقضبانه ، فلا بد ان يطبق شيئا فشيئا علينا ، ويخنق فجأة أنفاسنا ، ويستحيل من سجن الى مقبرة .

لم نعد متخلفين

عندما تطمع الشعوب الصناعية فى شعب زراعى ، وتبتليه بالاستعمار والاحتلال ، يستسلم هذا الشعب، أو يقاوم مقاومة سلبية ، أو مقاومة ايجابية متقطعة. ولقد كنا نحن بالامس شعبا زراعيا فقط . فكانت مقاومتنا للانجليز تارة ايجابية عنيفة ، وتارة سلبية متحدية .

أما اليوم وبعد أن استفقنا ، وسددنا جهودنا نحو الصناعة ، وأخذنا بأسباب العلم المتطور التجريبى ، ورضنا أنفسنا على استخدام كل مستحدث منه حتى السلاح ، فقد قاومنا العدو الغاصب مقاومة ايجابية تامة ومطلقة ، أى مقاومة بالنار والحديد والدم .

فهذه المقاومة الايجابية المستبسلة ، هذه المقاومة التى أثبتنا فيها قدرتنا على استخدام شتى أنواع السلاح العصرى ، هى الدليل البالغ على أننا لم نسترد كرامتنا الوطنية فحسب ، بل أنتقلنا من طور الزراعة الى طور الصناعة والعلم ، ولم نعد متخلفين ، بل حققنا المساواة بيننا وبين الشعوب المتقدمة ، وارتقينا فى سلم الحضارة الحديثة التى قوامها الصناعة والعلم .

السياسى الحكيم

اذا كان السياسي الحكيم ينزع فى مظهره الى الهدوء ، فباطنه يغلى كأعماق البحر .

ان هدوءه هو ضبط للأعصاب ، هو كبح للمشاعر ، هو امتلاك للنفس واتزان فى العقل ، هو فكر نير ثاقب ينعم النظر فى اخطاء الماضى ، ليقيس مدى قدرته فى

التغلب عليها ، ومحو آثارها ، وبنــاء مستقبل زاهر جديد .

فهو بين ما كان وما يجب أن يكون ، يتأمل الحياة . وينظر الى الواقع ، ويرسم الخطة ، ويتابعها بالصبر والدأب والتكتم والهدوء ، متربصا بالاحداث ، مراقبا تقلبها ، لا يكف عن محاولة النفــاذ اليها واستبطان دخائلها فى تيقظ وتنبه وحذر .

فالمبالغات الطائشة لا تستخفه ، والافكار والخيالات الجامحة لا تذهب بلبه ولا تنحرف به لحظة عن رؤية الواقع . بيد انه متى أعد العدة ، واستكمل العتاد ، ثم تأهب للعمل ، وأبصر الفرصة سانحة ومؤاتية ، عندئذ يجيش البحر فى أعماقه . فينقلب هــدوؤه الى حركة محمومة ، واتزانه الى غليان . فيثب وينطلق لخير ومجد بلاده ، ويضرب الضربات الرائعة فى الصميم .

هذا هو الرئيس محمد أنور السادات !

المشعل الحضارى

لا عبرة بالغزوات والفتوحات يقوم بها شــعب من الشعوب . لا عبرة بغزو أرض واستعباد أهلها . كل شعب غزا واستعمر واستعبد فقد فى النهاية كل شىء .

المشعل الثقــافى الحضارى الذى يضيئه شعب هو الذى يبقى .

ونحن قد حملنا بالامس هـــــذا المشعل وأضأنا به العالم . فاذا حملناه اليوم أيضا وغذيناه ما استطعنا بمولدات فكرنا وعبقريتنا ، وسهرنا على حمايته بقوة عسكرية مرهوبة ترد الاطماع عنا ، فسنجبر الشعوب جميعا على احترامنا وتقديرنا والحرص على وجود

الخصب الثمين ، ونصبح فى الشرق منـارا يهتدى به الناس فى طريق المعرفة والتقدم والحرية .

نشأة الحضـارة وغايتها

نشأت الحضارة منذ الساعة التى اضطر فيها الانسان ان يلتقط من الارض حجرا أو يقتلع شجرة منجذعها ، وينقض بالحجر أو الشجرة على وحش ليقتنصه ويتبلغ به .

كذلك نشأت الحضارة عندما استفاق فى الانسـان احساس الجمال ، ففكر فى تزيين بدنه بورق الشجر ، ثم انحنى على مياه الجدول والمرأة بجواره ، فألفىنفسه رشيقا متأنقا ، وألفى المرأة ، وقد تزينت بورقالشجر هى أيضا ، مخلوقا رائع الفتنة ساحر البهاء ...

فطن الانسان الى معنى القوة عندما صرع الوحش ، وأدرك معنى الجمال عندما انعكس ظله وظل المرأة على مياه الجدول ...

كانت هذه هى المرحلة الاولى التى خلقت فيه ايمانه بنفسه ، وألقت فى روعه ان من استطـاع اقتنـاص الوحوش وتجميل الابدان قد يستطيع الـكثير على مر الزمن .

ومن ثم كانت المسألة مسألة جهد وصبر ووقت . وهكذا وجدت الحضارة .

أما الدوافع التى حفزت الانسان وما تزال تحفزه للتغلب على الطبيعة وخلق الحضارة فهى بقـاء الفرد واستمرار النوع .

وليس ثمة شك فى انه من المحال على الفرد أن يبقى الا اذا كان قويا وكذلك النوع .

ولقـــد أحس بذلك ، فتمثلت نزعته الى القوة فى الإكثار من حاجاته وفى اضطراره الى العمـل المتواصل للحصول على هذه الحاجات .

فهو يريد أن يأكل ، ولذلك يجب أن يعمل . وهو بريد أن يتجمل ويصيب أوفر قسط من رضى الانثى ، ولذلك يجب أن يعمل . وهو يريد أن يذود عن نفسه وعن أسرته ، ولذلك يجب أن يعمل . وهو ، وقد ظفر بالمـأكل والملبس والمرأة والاولاد واستشعر كل ما فيه من قوى ، يريد أن يستغل هـذه القوى الى حـدها الاقصى وان يسخر الطبيعة لمشيئته ، ولذلك يجب ان يمضى فى العمل ما استطاع .

فالحضارة اذن تتلخص فى ظاهرتين . رغبة الانسان فى حاجات متعددة ، والعمل الذى يقوم به لقضاء هذه الحاجات .

غير ان هناك ظـاهرة أخرى لا تستقيم الحضارة الا بها ولا توجد الا متى توافرت عناصرها . وهذه الظاهرة هى الاحساس بالحق .

ولنتصور إنسانا أنجز العمل المفروض عليه وكافح طوال نهاره للحصول على حاجاته ، أفلا يحس هـــذا الانسان أن لابد من وجود سلطان فوق سلطانه يضمن له التمتع بثمرة عمله فى أمن وراحة بال ؟

هذا التوق الى الامن هو الذى أوجد فكرة الحق ؛ وفكرة الحق هى التى أوجـدت فكرة العدل ، وفكرة العدل هى التى أوجدت فكرة الامة ، وفكرة الامة هى التى أوجدت الحضارة .

وانما نشأت تلك الافكار الثلاث من الخوف ، خوف

الانسان من ان يعتدى عليه آخر ويسلبه ما ربح بكده أو يهدد بقاءه ويهدد المجموع الذى ينتمى اليه . لذلك وضع مختلف الشرائع والقوانين . ثم انطلق يكافح أيضا ويجاهد ويرتفع . فاتسعت نظرته الى العمل ، وبات يدرك ان الجهد البشرى ليس هو الجهد العضلى فحسب ، بل هو جهد العالم والمخترع والمكتشف ممن يصارعون الطبيعة بعقولهم ويسخرونها للحاجات المادية المشتركة ، وكذلك جهد الشعراء والادباء والفنانين والفلاسفة ممن يتسامون بالحياة ويجملونها بروائع فكرهم وخيالهم ، ويخلقون فى الانسان مشاعر وعواطف جديدة تخلق بدورها حاجات معنوية جديدة ونبيلة .

على ان أعلى مراتب الحضارة يتمثل فى اجراء التعادل بين الحاجات المادية التى لا تفتأ تغرى بها مكتشفات الصناعة والعلم ، وبين الحاجات المعنوية التى تزخر بها روائع الادب والفلسفة والفن ، بحيث لا تطغى الاولى على الثانية ، فيستبد بالفرد سلطان المادة ، وتختنق فيه مطالب القلب والفكر والروح .

فالامة الاكثر تقدما فى مضمار الحضارة هى التى تشبع مطالب أبنائها المادية والمعنوية معا .

هى التى تستطيع ان تضمن لهم جميعا أوفر حظ من النماء المادى مقترنا بأوفر حظ من ثقافة العقل والوجدان .

أما الامة التى يختل توازنها وتحيا فيها أقلية ضيئلة ، مثقفة ومترفة ، حياة الجاه والتمتع على حساب اغلبية تشكو الجهل الفاضح والعمل المرهق والامراض المستعصية والفقر المذل ، فتلك أمة لايمكن بأى حال

من الاحوال ان تدرج فى قائمة الامم المتحضرة .

وقد يكون فى وسع هذه الامة ان تشيد المبانى العظيمة والاثار الخالدة ولـكنها مع ذلك لن تكون قد حققت مثل الحضارة الاعلى ما دامت جهـودها قـد انصرفت الى مرضاة تلك الاقلية المترفة على حساب المجموع .

ويكفينا أن نلقى نظرة على أية حضارة قديمة لنقتنع بأنها لم تكن الاحضارة ارستقراطية قامت على حساب الشعب ، وباعدت بين أفراده وبين أسباب الرقى ، ولم تحاول ان تفتح ابواب التقدم المادى والنماء المعنوى فى وجوه الجميع بلا استثناء .

لهذا السبب كان الرق متفشيا فى الحضارات القديمة وكان التوازن مختلا بين الارستقراطيين وسواد الشعب سواء أفى الحياة المادية أم فى الحياة الثقافية والوجدانية

فالطبقة الارستقراطية عاشت فى الماضى لنفسها لا لمواطنيها ولا للانسانية . وليست العائلات الارستقراطية هى التى أنجبت عظماء الفكر والفن . ان معظم هؤلاء قد خرجوا من الشعب أو من الطبقة المتوسطة . فسقراط كان ابن قابلة ، وفولتير ابن مسجل عقود ، وشكسبير ابن جزار .

اجتماعى وفردى

الانسان مخلوق اجتماعى وفردى ، والغاية المثلى هى ان ننظم له حياته الاجتمـاعية من مأكل ومشرب وعلم وعلاج ، وأن نقدر قيمة حياته الفردية ونحرص الحرص كله على استقلالها . وهكـذا يحس هو انه كائن ، وانه حر . فيطلق العنان لمواهبه الخاصة ، وممكناته الذاتية وما فيه من قوى الابتكار والخلق .. فيحيا حيـاته

الشخصية موفور الكرامة ، ويشارك فى الوقت نفسه فى تنظيم المجتمع وارتقائه وتطوره .

عصرنا الصناعى

نحن نعيش فى عصر صناعى ، والالات والمبتكرات الصناعية الحديثة التى تكفل الرفاهة للفرد ، تذهله وتخلبه . فاذا أسرف فى السعى وراءها جاعلا منها غاية حياته ، ألهب هذا السعى الجانب الادنى من طبيعته أى الجانب الارضى المادى ، واخمد فيه الجانب الاعلى أى جانب العاطفة والوجدان والثقافة والفكر .

وعندئذ يصبح هذا الفرد المزود بكل مستحدث وطريف من آلات ومبتكرات عصرنا الصناعى ، رجلا متمدينا فى الظاهر ، بينما هو فى جوهره العميق رجل بدائى أو همجى .

التفوق المثالى

ان رغبة التفوق أصيلة فى الطبيعة البشرية ، ولكن الطريق الى التفوق يختلف باختلاف الناس .

ففريق ينشد التفوق فى الجانب المعنوى أى فى العلم او الادب أو الفن ، وآخر ينشد التفوق فى الجانب الاجتماعى أى فى المكانة المرموقة والمنصب الرفيع ، وثالث ينزع الى التفوق فى الجانب المادى أى فى السعى وراء المال .

فهل هذه الضروب المختلفة من التفوق هى التى ترقى بالانسان حقا وترتفع به ؟..

الحقيقة التى لاشك فيها ان قيمة التفوق لا تقاس بقدرة المتفوق على النفع الخاص فحسب ، بل بقدرته على النفع العام أيضا .

فكلما افضى التفوق فى أى لون من ألوانه الى الخدمة العامة فى ظل الامانة والنزاهة والشرف والتضحية عند الاقتضاء ، كان هذا التفوق عنوان قوة ، ورمز بطولة ، ودليلا بالغا على نبل فى النفس وسمو فى الاخلاق .

ذلك هو المثل الاعلى الخليق بأن يتجه اليه سعى الانسان وجهاده .

ولكن من أين ينبثق هذا المثل ، ومن أين يجب أن يستوحى ، وما هو الينبوع الحى الذى يصدر عنه بحيث يفيض على الافراد ويتغلغل فى سواد الامة ؟..

الواقع ان ذلك التفوق المثالى المتجه نحو الخدمة العامة لا يمكن ان يؤثر فى مجموع الشعب الا اذا انحدر من أولئك الذين يمثلون الطبقة القائدة التى تضطلع بالشئون العامة وتحمل أخطر المسئوليات .

فأفراد هذه الطبقة هم القدوة ، وهم ان لم يتحلوا بالنزاهة المطلقة وروح البذل والتضحية واتخذوا من انفسهم مراكز قوى تجمع حولها المحاسيب والانصار ، انحطت ولا ريب نزعة التفوق عند الافراد ، وارتدت الى حكم الغريزة ، واستحالت الى أنانية وصولية غاشمة ، لا تفكر الا فى المصلحة المادية فقط ، على حساب الفضائل والاخلاق وعلى حساب المصلحة العامة للأمة بأسرها .

غريزتان ...

هناك غريزة تدفعنا الى طلب الامن والدعة والراحة والابتعاد عن الناس ، وهى غريزة سلبية مبعثها الخوف .

وهناك غريزة تدفعنا الى العمل والطمع والامتلاك

والتمتع وغزو المرأة وتحقيق الحب، وهى غريزة ايجابية مبعثها القوة .

فاذا تغلبت فينا الغريزة السلبية الاولى عشنا مستسلمين لسلطان الخوف ، منكمشين وضعافا وجبناء .

واذا تغلبت فينا الغريزة الايجابية الثانية ، عشنا مستعذبين نشوة القوة ، أنانيين وجشعين وقساة .

فالرجل العاقل المتزن البصير هو الذى يحاول ما استطاع أن يقر التعادل بين الغريزتين ، بحيث لا يطمع ويسرف فى رغبة الامتلاك والتمتع فيتنكر لانسانيته ، ولا يسرف فى طلب الامن والدعة والراحة فيتجرد من ارادة القوة التى لا قيمة لحياته الا بها .

نحن والأخرون

أن نخدم الناس هو أروع وأخصب عمل يمكن أن ننهض به . ذلك لاننا ونحن نخدم الأخرين ، نسعد باطلاق ما فينا من قوى الخير ، أى قوى الطيبة والمحبة والتضامن الانسانى . فنعلو على أنفسنا ، ونجد غاية لحياتنا ، ولا نصبح مجرد مخلوقات بل نصبح خلاقين ولو لبعض ما فى الحياة من خير وحق وجمال.

رجل .. ورجل

الرجل الممتاز يفكر فى ما هو معنوى ليرتفع ويخدم الأخرين ، والرجل الشائع يفكر فى ما هو مادى ليتمتع ويرتفع على الأخرين .

بين الطيبة والعدل

ليست العبرة فى ان تكون طيبا . ألعبرة فى ان تكون

أيضا عادلا ولو اضطرك اقرار العدل الى التضحية بطيبة القلب .

عناد وعقم

الذهن العقيم هو الذهن العنيد . والذهن العنيد هو الذهن المغلق الذى لا تحكمه فى الغالب غير فكرة واحدة شديدة الشبه بالفكرة الثابتة التى تحتل عقل مجنون .

امتياز الانسان

لم يخلق الانسان عبدا . واما عبارة « تأكل خبزك بعرق جبينك » أى تأكل خبزك فى غمرة الالم ، فلا تعنى ان الالم المفروض على الانسان فى هذه الدنيا هو استعباد له ولعنة حلت عليه . الالم يلازم ولا شك العمل. ولكن الاضطرار الى مغالبة الالم كى يتم العمل هو الامتياز الذى أراده الله للانسان ، هو الحافز الذى يحرره من ضعفه ، ويشعره بقيمته ، ويلمسه الثمرة التى يجنيها من جهاده ، ويرتفع به فوق سائر المخلوقات ويجعل منه سيد الارض وملك العالم .

حرية الانسان

ليس للانسان طبيعة محددة ومصبوبة فى قالب نهائى. انه لا يفتأ يتحرك ويعمل . فأفكاره هى فى الواقع مشروعات ، ومشاعره تلهفات تؤدى الى التزامات. واما حياته فتتمثل فى مستقبله أى فى مجموع المسالك التى يسلكها اليوم والتى يصوغ بها للغد هو نفسه شخصيته ومستقبله .

فهو اذن مبدع ذاته ، وهو حر بارادته ومسئول ، وفى وسعه ان يختار . فاما ان يسلك امام حظ جائر

طريق الضعف والتسليم ، واما ان يستنهض ارادته ويقاوم ويسلك طريق المجالدة والكفاح .

فوق المتوسط

لا أحب الى من الانسان الذى يأبى الا أن يعلو على المتوسط ، الانسان الذى يذهب فى الاخلاص الى اقصاه ، أى الذى يتفانى فى الاخلاص لمبدأ ، أو يتفانى فى الذود عن عقيدة ، أو يتفانى فى حب امرأة ، أو يتفانى فى عمل معين ينشد فيه الكمال .

هذا الانسان قد يتعثر ، وقد يخطىء ، وقد يندفع وهو فى نشوة الاخلاص فلا يقيس حدود ممكناته ولا يكترث لواقع الحياة فيتهور . ولكن حرارته تشفع له ، واخلاصه يرتفع به ، وصدقه فى الوفاء لمبدئه أوعقيدته أو عمله أو حبه يجعل منه بطلا ، ولو قوبل بالنكران والجحود ، أو حاق به الفشل وخرج من المعركة مثخنا بالجراح .

لا تحتقر العاطفة

ان من يهتدى بالعاطفة وحدها كثيرا ما يضل ويتعثر . ومع ذلك فلا يجب ان نحتقر العاطفة ، فهى فى بعض الاحيان تكسب الانسان قوة ونبلا . والواقع ان العاطفة فى اندفاعها الصادر عن القلب ، قد تقدم على أشد المغامرات خطرا ، بل قد تقدم على العظائم ولو فى جرأة طائشة تجلب الكوارث .

ولكن فى هذه الجرأة قيمتها . اذ من يدرى فقد تبلغ بجرأتها الهدف ، وقد تحقق بها ما تنشد ... وحتى لو حاق بها الفشل فهى تصبح أفضل بكثير من تردد الجبناء الخائرين الذين يخشون كل مغامرة ،

ويرتعدون فرقا من الاقدام على أى عمل عظيم .

فى اعمـاق كهف

من الناس من يروض قلبه على الصلابة كى لا يحب . وهذا هو الانانى القاسى .

ومنهم من يروض نفسه على الرذيلة كى يخنق ضميره ويمضى فى استباحة كل محرم . وهـذا هو المستهتر الشرير .

ومنهم من يروض نفسه على الباطل كى يأمن ما قد تجلبه عليه قولة الحق . وهذا هو الضعيف الجبان .

وهؤلاء جميعـا يوصـدون أمامهم أبواب الحيـاة ، ويعيشون فى أعماق كهف مظلم خانق لا يرجى لهم منـه أبدا خلاص .

تربيـة الضـمير

الشعور بالمسئولية نفحة من نفحات الضمير الحى . فينبغى الحرص على تربية الضمير كى ينمو الشـعور بالمسئولية .

وأساس تربية الضمير ، تقديس النزاهة ، وتمجيد الواجب ، وحب العمل ، والـكلف بالدقـة والنظـام . فالصبى الذى يروضه أهله ومؤدبوه على القيام بواجب معين ، ويزينون له هـذا الواجب ، ويشعرونه بما فى تأديته من جهد يتفوق به على نفسه وعلى أقرانه تفوقا يضاعف احساسه بالـكرامة والرجولة ، الصبى الذى ينشأ على تحرى الدقة والنظام فى العمل ، لا خوفا من عقاب ولا رغبة فى ثواب ، بل خضـوعا لشعور تأصل فيه عن أهله ومؤدبيه بأن العمل الدقيق الـكامل يحمل فى نفسه لذته ، وفى نجاحه قيمته ، وفى اكتماله فخر

صاحبه ، هذا الصبى هو الذى يحس معنى المسئولية عندما يصبح رجلا . فلا يضعف أمام التجربة ، ولا يؤخذ بالمطامع والشهوات ومغريات المادة ، بل يعف عن كل دنيئة ، لان النزاهة كانت غذاء ضميره ، وحب الواجب للواجب كان منذ الصغر قبلة حياته ومثله الاعلى .

شر ضروب التربية

التعليم شيء والتربية شيء آخر . وشر ضروب التربية ان تحاول انت الكبير ان تفرض على الصغير الذى تربيه شخصيتك ومنزعك وطباعك وان تجعل منه انسانا شبيها بك .

لا ورقة فى شجرة تشبه أخرى ، ولا أنسان يشبه آخر . فشخصية الصغير هى التى يجب ان تكشف عنها انت ، وهى التى يجب ان ترشد الصغير الى ممكناتها وقواها ، بحيث يشعر هو بحريته واستقلاله فلا يكبت مواهبه وملكاته خوفا منك بل يطلقها ، ويكون هو نفسه على نفسه الرقيب والحسيب .

والواقع ان الاكراه فى التربية شائع ، وكثيرا ما يتفاقم عند البعض ويصبح لذة « سادية » خبيثة شريرة تدفع الكبير الى الامعان فى القسوة على الصغير بحجة تقويمه. فينشأ الصغير ثائرا متمردا ، مخنوق الضمير ، كارها لكل واجب ، ملوث النفس برذائل الكذب والمواربة والختل والنفاق .

الضمير المثالى

مات الموسيقى العظيم « موزار » وهو فى الخامسة والثلاثين أى وهو فى شرخ الشباب .

وقبل ان يلفظ النفس الاخير قال : « أحس انى

سأموت . ومع ذلك فالحياة جميلة ، والمستقبل كان زاهرا أمامى . ولكن من ذا الذى فى وسعه أن يضمن المستقبل . انى على وشك ان افرغ من وضع لحنى الجنائزى الاخير . فلا يجب أن أدع فيه أى نقص. يجب أن أهذبه وأصقله قبل رحيلى كى يخرج مستوفيا شروط الكمال الفنى الذى لابد أن يظل هو غايتى...»

وتحامل موزار على نفسه ، ونهض واستكمل جوانب النقص فى اللحن .

هذا هو اخلاص الفنان لفنه ، بل هذا هو الضمير الانسانى المثالى الذى لايستريح الا اذا أتم العمل، وأدى الواجب ، ولو وهو على عتبة الموت .

باب وباب

المرونة فى الفكر باب يؤدى الى التفاهم والتسامح والتعاطف بين الناس ، أما المرونة فى الضمير فباب يؤدى الى الخبث واللؤم والوصولية ومنها الى كل رذيلة بل الى الاجرام .

موت الضمير

كل من يرتكب الشر ويندم ، يشعرنا بالراحة لانه لايزعزع اعتقادنا فى وجود الخير بل يؤكده . اما ذلك الذى يرتكب الشر ويظل قرير النفس مطمئن البال لا يحس الندم ولا يطلب المغفرة ، فهو يهدم الصرح المعنوى العتيد الذى تنهض عليه حياتنا ، فيوئسنا من وجود الخير فى هذه الدنيا ، ويواجهنا بشىء مروع هو موت الضمير الذى فيه امتيازنا وقيمتنا .

سارق مرتين

كل عمل نعمله يجب ان نحاسب ضميرنا ونحن ننهض

به ما دمنا سنتقاضى أجرا عليه . أى يجب أن نعطى العمل حقه من البصر النافذ ، والاهتمام الصــادق ، والجهد المخلص ، حتى نتمه فى شتى جوانبه ولا نبقى فيه شيئا ناقصا كان فى وسعنا أن نستكمله . أما أن نكتفى بمعالجة العمل أو حتى باتقان جزء أو جزئين منه ثم نهمل تهذيب وصقل المجموع ، فذلك هو الاستهتار الجنائى الذى يفسد العمل ويخنق الضمير ، ويجعل من المستهتر بلطجيا بل لصا يسرق ثقة منحت له ، ويسرق أجرا لا حق له فيه .

جمرة الحقد

الحقد عند بعض الناس لا يمكن ان يموت ، بل يظل فى نفوسهم جمرة متقدة تحرقهم ، وتذكرهم على الدوام بالذنب الذى ارتكبه انسان فى حقهم ، رغم توبة ذلك الانسـان وندمه العميق على ما ارتكب .

فأولئك الناس لايعرفون لا النسيان ولا الصفح، وأبلغ لذة عند الفرد منهم ان يذكر المذنب فى كل مناســبة بذنبه ، ليشفى منه غليله .

ولــكن الانسـان اذا ندم حقا ، وكان ندمه ظاهرا وتوبته واضحة ، ثم أبينا نحن الا ان نظل حاقدين عليه ، لا نثق فيه بل نذكره دائما بذنبه ، فمما لا يقبل الريب انحقدنا الخسيس عليه مقرونا بظلمنا الصارخ اياه ، لابد ان يذله ، ويدفعه الى بغضنا ، ثم الى الثــأر منا بمعاودة اقتراف الذنب فى حنق وسخط واصرار .

على اننا بالحقد لا نلهب الثورة فقط فى صدر النادم ونوئسه من جدوى الخير ، بل نسمم فى الوقت نفســه عقولنا وقلوبنا بذلك الحقد الغاشم الذى ننهش به المذنب وننهش أيضا أنفسنا .

النكتة وقيمتها

ليس لنا ان نأخذ على شعبنا روح الفكاهة والمرح فهى ولا ريب دليل صحة ونشاط وحياة . ولكن ما نأخذه عليه هو استمراؤه لهذه الروح ، واسرافه فى الولع بالنكتة يرسلها فى كل مناسبة بل وفى أخطر المواقف .

والواقع اننا نؤثر فى الغالب نكتة طريفة على حوار جدى خطير ، وفى سبيل تذوق نكتة طريفة نضحى بالفكر نفسه وتنقلب مجالسنا الى مجتمعات تهريج .

والملاحظ ان قيمة الرجل الذى يعرف كيف ينكت ، تعلو فى نظر الكثيرين منا على قيمة المفكر أو الباحث أو الاديب .

ثم ان قوام النكتة عندنا هو المبالغة والتجسيم والتهويل الى حد يضيع معه الغرض الاصلاحى المقصود من النكتة ويتلاشى فى غمرة القهقهة والصخب والضجيج.

فنحن كلما بالغنا فى النكتة على حساب الواقع فرحنا وابتهجنا ، لان هذه المبالغة بالذات هى التى تثير فينا ما نتعلق به ونهواه أى القهقهة والصخب والضجيج .

ونحن الآن وقد وثبنا وثبتنا الوطنية الرائعة ، وغدونا على أبواب حياة جديدة تتطلب اليقظة والعمل والكفاح ، علينا ان نشرب أنفسنا روح الجد ، وان نروضها على استنكار المبالغة التى تشوه الواقع وتطمس معالم الاشياء ، وان ننشد فى النكتة لا الاستغراق فى الضحك والقهقهة الذى يفقد النكتة قيمتها الاجتماعية وغرضها الاصلاحى ، بل ننشد فيها الضحك الذكى المتزن الواعى ، الضحك الساخر الناقد اللاذع الذى يستهدف الاصلاح ويرمى الى التقويم ، فيصبح

مادة البناء لا للعبث والمجون والتسلية الرخيصة وقتل أوقات الفراغ .

شراهة ... وجنس

الشراهة رذيلة مروعة تستبد بالكثيرين منا . ونحن لا نستعذب الشراهه ولا نتهافت على كل دسم من الوان الطعام الا لنقوى فى الغالب على ممارسة شهوة الجنس . وعندئذ تصيبنا شتى الامراض من اضطراب فى المعدة وتضخم فى الكبد وتصلب فى الشرايين وارتفاع فى ضغط الدم يؤثر فى وظائف القلب وقد يحدث من انجلطات ما يمكن أن يفضى الى الموت .

على اننا ان نجونا من هذه الادواء ، فالشراهة التى نتخذ منها وسيلة للاسراف فى شهوة الجنس ، قد تصيبنا بما هو أشد وأخطر ، أى بتزعزع فى جهازنا العصبى ، وفى قوتنا الجنسية نفسها التى يستنزفها الاسراف ، وفى قدرتنا على العمل والتأمل والتفكير . فتجف عقولنا ، وتتبلد أذهاننا ، ونستحيل الى مخلوقات لا هم لها الا اشباع البطن وما تحت البطن ، مخلوقات ادنى من معظم الحيوانات التى لا تجاوز قانون الطبيعة والفطرة لا فى المأكل ولا فى المشرب ولا فى ممارسة الجنس.

الصدق والحرية

الرجل الصادق الابى الذى يكره الباطل ويجهر بالحق ، لا يستطيع ان يتنفس الا فى جو من الحرية . ففداء الصدق هو الحرية . وحيث لا حرية ينعدم الصدق وينتشر النفاق .

شرف الانسان

الحرية هى شرف الانسان ، هى حافزه وقوته ، هى

هبة من الخالق الى مخلوق حر عليه ان يثبت فى الحياة حريته وارادته بأن يبدع ويخلق أسوة بخالقه .

قســوة المتكبر

المتــكبر قاس مع الآخرين ، يحاسبهم على أبســـط هفواتهم ، ولا يفكر لحظة فى ان يقســـو على نفســـه ويحاسبها ولو أيسر حساب .

فهو يأبى الا ان يكون أفضل من غيره ، ويأبى الا ان يظهر بمظهر الرجل الـكامل الذى لا مطعن فيه . فيثير فى النهاية ثائرة الآخرين عليه ، ويدفعهم الى محاسبته بأشد مما كان يحاسبهم هو به . وعندئذ تهوى شخصيته من حالق . فتصبح هفواته الطارئة فى نظرهم نقائص ، بل تصبح السقطة العارضة من سقطاته وكأنها منكر أو جريمة .

قســـوة الاذكياء

قد تكون أنت رجلا متوقد الذكاء وعصبى المزاج ، ثم تكون رئيسا على غيرك ومسئولا . فيثيرك من أحـــد مرءوسيك انه بليد الذهن وغبى لا يفطن على الفور الى غرضك ، ولا يفهم بالضبط مختلف جوانب العمل الذى عهدت به اليه . فتستنكر منه غباءه . وبدل ان تصبر عليه فترة لترشده وتهديه ، تثور أعصـــابك ، فتقسو عليه ، وتمتهنه وتذله ، وأنت تعلم انه مسكين وان لا حيلة له فى ضعف ذهنى مقدر عليه .

فاحذر قسوة الذكاء المقرون بعصبية جامحة ، والا ألهب فيك هذا الذكاء شعورا بالـكبر والاعتداد بالنفس لابد ان يؤدى الى استبداد صارخ بالمرءوس يجافى العدل ويستمرىء التنكيل والظلم .

شخصية البخيل

من خصائص البخيل انك اذا طلبت منه ان يعاونك فى قضاء حاجة ، أسرع مخلصا ولبى سؤلك على شرط الا تطلب منه ان يعاونك بنقود .

فهو يحس فى قرارة ذاته انه وضيع ، وانك تحتقره لشحه وبخله . فيندفع ويخلص فى خدمتك دون أى مقابل كى يرتفع فى نظرك ، ويرد اعتباره الى نفسه ، ويشعرك رغم بخله انه انسان كريم ونبيل ...

الفم والجيب ...

... وكما يخفى البخيل ماله ، كذلك ينطوى على نفسه ، ويخفى أفكاره وعواطفه ، ويضبط لسانه جهده . فهو بخيل بالمال وبخيل بالكلام ، يحب الغمغمات ، والهمسات ، والاسرارات ، وانصاف العبارات ، كأن كلماته هى أيضا نقود يخاف ان يسرقها انسان من فمه ...

ففمه يشبه جيبه ، ولو انه استطاع لاوصد فمه اطلاقا خشية ان تبدر منه فى غفلة عنه عبارة تفضح ما يمتلىء به جيبه ...

الغنى والفقير

الغنى أشد حسدا من الفقير ، لانه هو نفسه يحسد منذ البداية من هو أغنى منه .

أتقى صلاة

البر هو أتقى صلاة لانه يخصب الخير فى ساعته .

حجر الرحى

البؤس يشبه حجر الرحى ، فهو لا يشحذ فى الغالب عقل النابغ بل يبريه .

الندم الباطل

قد نعيش مع انسان قريب الينا وعزيز علينا ، ثم لا نفتأ نؤلمه ونجرحه ونعذبه على الرغم منا مدفوعين بأنانيتنا وكبرنا وحماقتنا . فاذا ما فقدنا بالموت فجأة هذا الانسان العزيز الغالى ، ذكرنا العذاب المرير الذى تحمله منا . فضل عقلنا ، وأخذ الندم المقرون بالعجز عن طلب الصفح والمغفرة من ميت يؤرقنا وينهشنا . فنبكى عندئذ على أنفسنا ، ونستهول نذالتنا وخستنا ، ونتمنى لو استطعنا ان نبعث ذلك الميت العزيز كى نتفانى فى حبه واسعاده ونكفر بذلك عن ذنبنا . ولكن المستحيل يصرعنا . فنظل فى غمرة الندم والحسرة واللوعة نبكى ونبكى على غير جدوى .

تجربة الالم

كل من لم يشك اى داء من الادواء فى النفس أو فى الجسد ، هو انسان لم يمر بأية تجربة ، ولم يعرف بعد حقائق الحياة . أما انت فاذا أصبت فى نفسك أو فى جسدك بأى داء ، فرحب به ولا تحزن . سيفقدك الداء ولا ريب ذلك التوازن الذى كانت تنهض عليه بالأمس شخصيتك . ولكن هذا الداء بالذات هو التجربة هو تجربة الالم . وهذه التجربة لا بد أن تولد فى جسدك المريض ارادة القوة والمقاومة ، أو تولد فى نفسك المريضة عواطف ومشاعر وانفعالات وأفكار لم تكن فى حسبانك فتدفعك دفعا الى ان تبدل نظرتك الى ذاتك والى الحياة والناس . فتتكشف لك جوانب كنت تجهلها من طبيعة الحياة وطبائع الناس . وهكذا تخلق لنفسك توازنا جديدا وتحس كأنك قد أقبلت على عالم مشرق وجديد .

التجربة والفكر

نحن عندما نعانى تجربة من التجارب لا نشعر بقيمة التجربة عند وقوعها ، بل نشعر بقيمتها بعد زمن طويل أو قصير . ذلك لأن التجربة حركة تشغلنا عن التفكير . أما الزمن فهو الهدوء الذى يمكننا من أن نفكر ونتأمل ونجنى ثمرة التجربة . فكأننا والحالة هذه نستمد من التجارب عودة الى الحاضر بفهم أوسع ، ووعى أعمق ، واتجاه جديد .

ســــــــاعاتنا الخصبة

مهما كانت الذكريات أحلاما ، فالذكريات مع ذلك هى حيــاتنا ، وهى مهما غافلتنا وانسكبت فى جوف المــاضى فمعظمها لا يمكن ان يموت .

والواقع ان ذكرياتنا الجميلة هى التى قــد تتقلص شيئا فشيئا وقد تموت . أما ذكرياتنا الاليمة فهى التى تعيش فى اعماق نفوسنا وتبقى .

هذه طبيعتنا ، ولا يجب أن نتبرم بها . اذ الذكريات الاليمة هى تجاربنا ، هى اخطاؤنا ، هى الساعات التى غلبنا فيها القدر على أمرنا ، أو التى استـضعفنا فيهـا واتبعنا ميولنا وشهواتنا . هى الساعات التى واجهنـا فيها الشر والخير ، الباطل والحق ، الخطيئة والندم . هى الساعات الخصبة الفريدة التى فى وسعنا ان نستمد منها عبرة وقوة وحياة .

آلام الجســـــد

نحن ولا شك نتعذب بآلامنا النفسية . ولـكن خيالنا المتقد بها قد يجسمها لنا فنجد فيها مع ذلك لذة . أما آلامنا الجسدية النابعة من أمراضنا فنكتوى بها اكتواء

حميما يصيبنا فى الهيكل الآدمى الذى هو قوام حياتنا. لذلك لا يجب ان نسرف فى البهجة والمرح امام مريض ، أو نظهر اعتزازنا بصحتنا امام مريض ، أو نقبل على الطعام فى نهم امام مريض . هذه الحياة المتفجرة منا ، تذهل المريض وتخيفه ، وتضاعف فى خياله من خطورة مرضه . فيبغضنا من اعماق نفسه ، ويرى فى اضطرام حيويتنا نقيضها المروع ، أى صورة ضعفه هو ، بل صورة الموت الذى قد يزحف فجأة اليه .

سجن الذات

لا يمكنك ان تفهم الناس اذا نظرت اليهم نظرة ذاتية وحكمت عليهم بما تفكر فيه انت وتشعر به . المرأة هى الذاتية ، وهى التى تحكم على الاشخاص والاشياء مدفوعة بانفعالاتها وعواطفها . فتجرد انت من عواطفك ، وحكم العقل المستقل المحايد النزيه فى النظر الى غيرك ، وكن موضوعيا ما استطعت ، والا لبثت كالمرأة حبيسا فى سجن ذاتك ، تشوه نظرتك الى الآخرين بما تعكسه عليهم من مشاعرك وفكرك الخاص ، فيستحيل عليك عندئذ فهم حقائق الناس وحقائق الحياة .

فى كل انسان عبقرية

كل انسان فيه عبقرية على شرط ان يعرف كيف يستكشفها . ولكن الانسان فى الغالب لا ينعم النظر فى نفسه ليستبطن حقيقة ذاته ويعرف فى أى علم أو أدب أو فن تكمن مواهبه ، بل يفزع من هذا الجهد ، ويطلب اليسر ، فيقلد غيره . فتظل عبقريته هو مستغلقة عليه ، ثم تختنق وتموت ولا تخلف فى نفسه حتى ولا الحسرة.

يسر عجيب

تدهشنى فى الكثيرين عنـدنا نزعتهم الى تبسيط الامور ، وتبسيط الافكار ، وحل مختلف المشكلات فى يسر عجيب .

فالمشكلات قد تكون دقيقة ومعقدة ومتشعبة الجوانب، فتراهم يلخصونها ، ويبسطونها ، ويطرحونها امامك وكانها خالصة من كل تشعب وتعقد وعمق . فتبهت أنت وتحس ان المشكلة قد اختنقت تماما واختفت وان الحل الذى ارادوه ليس فى الواقع حلا لها بل تملصا وفرارا من التعقد الذى هو جوهرها ، والذى يقتضى حله جهدا لابد ان يضعهم أمام حقائق الحياة المرة وجها لوجه .

فالفرد منهم يريد أن يرى الاشياء فى يسر ، تجنبا للفزع من رؤيتها فى مشقة التأمل والتعمق وقدح الذهن .

وتلك هى راحة الكسالى المتبلدين المستهترين ، الذين يخشون كل عمق كأنه هاوية .

أوقات الفراغ

أوقات الفراغ الطويلة ترهق الانسان اكثر بكثير مما ترهقه أوقات العمل المتواصلة . اذ الفراغ يبعث فيه الضجر ، والضجر يشعره بأنه يدور حول نفسه ، ويضيق بحمل نفسه ، ولا يعرف ماذا يفعل بنفسه . فيندفع ويهتم بالسفاسف . فيعاوده الضجر . فيرتمى على مقعد أو يتمدد على فراش ، ويحس انه كئيب وانه حزين وانه مهزوم .

فالعمل هو الذى يقهر الضجر . هو الذى يملأ فراغ الزمن . ومتى امتلأ الفراغ بالعمل ، امتلأ الانسان بالفرح ، فرح الارادة التى استقرت على غاية معينة ،

على متعة عميقة ، فيها نفع وفيها عزة وفيها خلاص .

عجز وحرمان ...

كثيرا ما ننقم على الآخرين تمتعهم بلذة معينة ، لا لان تلك اللذة وضيعة ومشينه ، بل لاننا فى الواقع محرومون منها أو عاجزون عن التمتع بمثلها .

وهذه الظاهرة شـائعة عندنا ، تتمثل أبلغ تمثل فى شخصية « العزول » ...

فالعزول هو العاجز عن التمتع بلذة ينعم بها سواه ، أو هو المحروم من تلك اللذة حرمانا يثيره ويحنقه . لذلك هو يغار من سعادة الغير ولا سيما من سعادة المحبين والعشاق . فتراه يحقد عليهم ، ويندس بينهم ، ويتدخل فى شئونهم ، ويأبى الا أن يعكر صفوهم ويثأر لعجزه أو لحرمانه بافساد سعادتهم .

فالعجز عن التمتع المشروع وكذلك الحرمان هو الذى يولد الخبث ، ويغرى باستمراء الوقيعة واستعذاب الشر . فينحط بالانسان ، ويجعل منه ذلك «العزول» الصفيق البغيض الوضيع ، الذى بدل ان يقهر عجزه ويحاول ان يشبع حرمانه ، يظل يحترق بمتعة الغيظ والكمد وهو يحرق بها سعادة الآخرين .

احلام الشيوخ

احلام الشباب آمال ، أما أحلام الشيوخ فمجرد ذكريات . والذكرى جميلة ولا ريب جمال مغرب النهار ، أما الامل فرائع روعة التربص والتحفز وارتقاب مطلع الفجر .

الرجل المثقف ... والرجل الفاضل

الرجل المثقف هو الذى يحس بما فى ميوله واهوائه

وغرائزه من تعقد وتضارب وتوزع وتشوش ، فيحاول بثقافته الواسعة وذهنه المتيقظ ان يفهم نفسه ، وينفذ الى باطن أهوائه وميوله ، ويجمعها ويحصرها فى وحدة منسجمة ، ليتمكن من ضبطها والتحكم فيها ، بحيث لا تؤثر على اتزان كيانه أو على صحة وعمق تفكيره فيما لو واجه أزمة شخصية أو اضطر الى معالجة حدث من أحداث الحياة .

فالرجل المثقف حقا هو الارستقراطى الصحيح ، المتحرر من فوضى طبيعته ، المهيمن بفكره على سلوكه ، النزاع الى معالجة كل شىء بعقله ، والمدرك تماما لمتناقضات الحياة والقادر على تقبلها والتوفيق بينها فى هدوء وتبصر .

وأما الرجل الفاضل فهو الرجل الاجتماعى الذى يحترمه الناس ويشيدون به . هو الرجل الذى لا يعنى بتثقيف عقله قدر ما يعنى بتهذيب نفسه ، بل هو قد يغفل الثقافة اطلاقا ويأخذ بمكارم الاخلاق . فتراه عزوفا عن المحرمات ، نفورا من الشر ، ميالا الى فعل الخير ، مسالما ومتسامحا يود أن يجوز طريقه دون أن يسىء الى أحد .

بيد ان هذا الرجل الكريم الخلق الناقص الثقافة المحدود أفق الفكر ، قد تعترضه فى حياته مشكلة خطيرة فيعجز لنقص ثقافته عن حلها ، أو تتوزع مشاعره تجاه شهوة طارئة عنيفة فيحار فى ضبطها ، أو تنزل به كارثة غير منتظرة فيرزح بالرغم منه تحت وطأتها . فهو انسان طيب وخير ومحبوب . ولكنه اذا كان يمثل الفضيلة فهو لفقر ذهنه يمثل الضعف أيضا . أما المثقف

« الحق » فيمثل الفضيلة والحكمة معا ، أى يمثل القوة النابعة من عقله الزاخر بالمعرفة ، ومن ارادته التى طوعت له أهواءه وغرائزه ، ومن روحه التى سما بها ليؤكد الجزء الاعلى من وجوده .

***

والآن وقد تحدثنا فى الادب والنقد ، والاخلاق ، لايسعنا الاان نقتحم الحياة نفسها ممثلة فى ميدان القصة حيث تحتدم المشاعر والعواطف ، وتنصب أضواء من الوصف والتحليل تكشف عن خلجات القلب ، وفواجع النفس ، وما يمكن أن يتعذب به الانسان أو يتفوق عليه وهو يواجه قدره ويصطدم بأحداث الحياة .

قصص

من

حياتنا

التجربة الثانية

هذه خلاصة قصة امرأة ، أفضت بها الى بعد أن اجتازت فى العذاب مأساتها .

قالت :

كنت أعلم علم اليقين ان زوجى يحبنى ويستمسك بى ويحرص كل الحرص على راحتى ، ومع ذلك فقد كنت مضطربة وقلقة ، لا أشعر بالقرب منه انى سعيدة تلك السعادة التى كنت أحلم بها وأنا فتاة ... كان اختلاف طباعنا يحفر هوة سحيقة بيننا ، فأنا كنت فى مطلع زواجى امرأة عاطفية ، ذات خيال ملتهب ، اتعشق كلمات الحب ومظاهره الفاتنة من رقة وعطف وحنان وتدليل وتصورات وأحلام ، أكثر مما أميل الى العلاقة الجنسية التى لا تكاد تتقد فى بدن الرجل حتى تفتر بعد لحظات وتموت ... أما زوجى « حامد » فكان رجلا هادئا متزنا ، جامد المظهر وصموتا ، يتعلق بى فى وفاء واخلاص . ولكنه لايعرف كيف يعرب عن عواطفه فى كلمات مشبوبة ، أو فى عبارات طريفة ، أو فى حنان أخاذ . كان يخجل من العواطف ويحذرها ، ويشعر كأن المصارحة بها تحط من قدره ، وتنتقص من رجولته ، وتشوش روح الجد والنظام التى أخذ بها منذ أول يوم لزواجه . فحامد كان طيبا وراجح

العقل ، وكان يحبنى ويرعانى ويسخو علي . ولكن حبه كان أبكم خفيا ، ورعايته عقلية دقيقة ، وسخاءه غير مقترن بتلك اللهفة النفسية التى يحسها عاشق يريد أن يروق فى عين امرأة . فلم يعجبنى انا هذا الحب الهادىء المنكمش . فآليت على نفسى أن أبدل من طبع زوجى ، أن أضرم فيه من نارى ، ومن شعلة العواطف التى كانت تلتهب فى صدرى .

حاولت طويلا ... كنت انا التى أتكلم ، وأنا التى اتدله ، وأنا التى أبدع الكلمات الآسرة ، والنظرات الخالبة ، والعبارات الحارة ، عساى أن أخلق فى زوجى عاطفة متوثبة كعاطفتى ، واراه ينبض ويختلج ويعيش. ولكنه كان يتأملنى مستغربا ، ويتفرس فى حائرا ، ويضطرب ويرتبك ، ولا يستطيع الا ان يغرق فى صمته، ويضاعف من سخائه على ورعايته العقلية لى .

ولما كنت اتبرم بمظهره الجامد ، كان يزداد دهشا، وينظر الى بعين حزينة آسفة معاتبة ، ثم يهز رأسه فى يأس ، ويشيح بوجهه عنى . فكنت لا أفهمه . لا أدرك انه يعيش لى وحدى ، ولا يرى فى دنياه امرأة أجمل منى ، وانه يحبنى الى حد العبادة ، ولكن ليس فى مقدوره أن يخرج من نفسه ، ويتحرر من طبعه، ويصبح المخلوق الجامح المتوثب الذى أشتهى .

ومع ذلك فقد كنت أشعر ان جانبا قصيا فى ذاتى ينجذب اليه ، ويتعلق به ، ولا يستطيع الاستغناء عنه. ولكنى فى الوقت نفسه كنت أحنق وأغضب ليقينى انه من المحال أن يتغير بحيث ينجذب اليه كيانى كله ، فأسعد بجواره وأستريح ...

وهكذا عشنا عامين طويلين ، انا فى فراغى العاطفى الظامىء ، وهو فى هدوئه ونظامه وصمته وحسن رعايته ووافر سخائه ، واعتقاده الساذج ان الزمن كفيل بتبديل أخلاقى والتغلب على كل شيء .

وحدث أن رزقت بمولود ذكر ، فاستضاء أمامى بغتة وجه الدنيا ، ولم أعد أفكر الا فى طفلى ... حشدت جميع عواطفى ثم رصدتها على الطفل الذى أصبح ملاذى وملجئى . شغلت عن الزوج بالطفل ، جعلت من الطفل حبيبى ، ومضيت أعشقه ذلك العشق المبرح الذى حاولت عبثا أن أضرمه فى قلب زوجى ...

وكان حامد يحب ولده بنفس العاطفة العميقة المكبوتة ، وبنفس الاسلوب العاقل المنظم الذى كان يحبنى انا به . فحز فى صدرى ان الابوة لم تبدل من طبعه . فازددت تبرما به ، وانصرفت عنه بجمعى الى ولدى .

وكنت فى تلك الفترة من حياتى أصطنع السعادة اصطناعا وأنا لا أدرى . كان يخيل الى ان الطفل يكفينى ، وانى لن أطلب بعد الامومة شيئا . بيد انى كنت أحس وأنا أهدهد طفلى انى أتمنى من أعماق قلبى لو انى أهدهد فى الوقت ذاته رجلا يشاركنى لهفة حنانى ، ويبادلنى حماسة فرحتى ، ويغرقنى فى سيل من العواطف كذلك السيل الذى كان يفيض منى على طفلى .

واشتد احساسى بالفراغ على الرغم من وجود الطفل . بل ان وجود الطفل زادنى رغبة فى عاطفة الرجل . ولكن زوجى لم يدرك . ظل كما كان ساكنا

ومنطويا . فتعذبت أنا ، وشاء القدر ان يسدد الي فوق عذابي طعنة غاشمة مزقتني .

أصبت بمرض نسوى خطير ، أجمع الاطباء بعد أن يئسوا من علاجه انى لم أعد صالحةِ للحمل ، وانى لن أعقب فى حياتى طفلا آخر بعد ولدى ممدوح .

هالنى هذا الحكم الجائر . أحسست انى أمسيت مخلوقا ناقصا ، مخلوقا زريا ، مخلوقا جديرا بالشفقة والرثاء . ولكن زوجى سكن من روعى . طيب خاطرى ، واكتفى بولد وحيد ولم يحفل . فبدل أن استشعر أنا عمق حبه ، وأقدر نبل مسلكه ، وأحاول أن أحبه وفق طبيعته وكما يريد هو لا كما أريد وأتصور أنا ، ازددت تهالكا عليه ، وتوقا الى تبديله ، ورغبة فى اضرام شعلة العواطف فى صدره ، هذه الشعلة التى اشتدت حاجتى اليها باشتداد نقمتى على نفسى ، ونقمتى على حظى . بيد ان زوجى لم يتغير . فتفاقم سخطى ، واستفحل عذابى ، وبدأت على الرغم منى أخالس المجهول وأتطلع الى الرجال ...

وكان « جمال » يزورنا . وكان شابا عزبا من أقرباء زوجى ، يعمل مهندسا فى شركة للمقاولات ، ويملك بضعة أفدنة من أجود أطيان الفيوم . كان وسيما وأنيقا ، يعرف كيف يتخير عباراته وهو يتحدث الى ، ويرسلها فى نبرات متهدجة تتقد بحرارة مخنوقة ، وتصدر عن وجدان زاخر بأعنف وأسمى المشاعر والميول .

هذا الشاب أثر فى نفسى . خيل الى انى وجدت فيه شبيه روحى . فاندفعت وغافلت زوجى وغازلته ... غازلت رجلا لاول مرة فى حياتى . فابتهج جمال ،

وتهافت على تهافت ماخوذ . فأدهشني منه ترخصه وتراجعت . فنقم على وصد عني . فغاظني صده

والهب كبرى . فقربته الى جاهدة ومنيته ، ثم اعرضت عنه بدوري وعذبته ، ثم عدت فاقبلت عليه بعد أن استوثقت من انه قد عشقني وهام بي ...

كنت افعل كل هذا وانا غافلة عن نفسي . كنت اكذب على حامد . كنت اكتم واضلل واغازل وانا سابحة في حلمي ، منتشية بالثقة العمياء التي استطعت ان اودعها بنفاقي في قلب زوجي .

ولما ملأت يدي من جمال وايقنت من صدق حبه وعنف رغبته في ان يتزوجني ، انبثقت امامي الحياة العاطفية المتقدة التي كنت انشدها . فتنكرت فجأة

لحامد . تمنعت عليه ، اثرت المنازعات في البيت عامدة ، كشفت القناع عن وجهي آخر الامر وطلبت الطلاق . فبهت زوجي وذهل . هاله مني عزمي . هاله أن يفقدني ويفقد ولده الوحيد . فاستمسك بي وأبى

ان يطلقني . فأمعنت في تعذيبه . فاستعطف واسترحم ، والتمس وتوسل . ولكني ثبت في موقفي . فضاق الرجل في النهاية ذرعا بي ، وطلقني يائسا مقهورا وهو يبكي ...

والعجيب انه كان يبكي ، وكنت انا ايضا في قرارة نفسي ابكي . كنت ابكي عليه . كنت اشعر وانا افكر في سعادتي بجوار جمال ان قلبي يتمزق شفقة على حامد ، وان في كياني جانبا خفيا يجذبني اليه ، ويربطني به ، وينبه عقلي ، ويحرك ضميري ، ويحاسبني على طيشي وقسوتي وجنوني ...

ومع ذلك فقد تم فراقنا . انفصلت عن حامد ، واقترنت بجمال ، وحملت ولدى معى ، أظمأ ما أكون الى الجمع بين المتعتين اللتين تصبو اليهما المرأة ، وهما الطفل والحب ...

وثار ثائر حامد عندما أدرك ان قريبه هو الذى خدعه واختطفنى . ولكنه استسلم مكرها لحظة ، وازداد انطواء على همه ، وزهد فى المجتمع والناس والدنيا..

أما أنا فقد حدث فى نفسى شىء غريب . لم أكد احقق رغبتى ، واقترن بجمال ، وأعيش فى صحبته ثلاثة أشهر فقط حتى تنبهت ذات يوم وصحوت ... تأملت هذا الرجل الغريب الذى سرقنى فجأة من نفسى ، واقتحم فى غفلة منى بدنى وحياتى . فتبدد فجأة حلمى ، واصابنى من فرط الخيبة شبه ذهول .

لم يسىء جمال فى مبدأ الامر معاملتى . كنت أشعر انه يحبنى . كنت أراه يغدق على تلك الكلمات الآسرة التى تفتننى ، وتلك العواطف الجامحة التى كنت أتلهف عليها . بيد انى أحسست ، ويا للعجب أيضا ، ان الكلمات والعواطف لم تعد تكفينى . بل أحسست ان الرجل الذى يلهج بها ويريد ان يحملنى فى تيارها ، هو انسان دخيل على ، وان كلماته رغم حرارتها ينقصها الصدق ، وعواطفه رغم اتقادها ينقصها العمق ، ورقته تنقصها الرعاية ، وخياله ينقصه الواقع ، وحنانه ينقصه التعقل والتبصر والاتزان .

وادركت الحقيقة المرة وانخلعت ...

ادركت جوهر شخصيتى ، حقيقة رغباتى . ادركت انى لم أكن أحب جمال بل كنت فى الواقع أحب حامد ،

وانى لم أحب أبدا جمال بل أحببت وما زلت أحب حامد ، وانى فى الاعماق البعيدة الغامضة من نفسى لم أكن أتمنى الا ان تجتمع فى حامد وحده مفاتن العقل والرعاية والهدوء والاتزان ، الى مفاتن العاطفة والخيال والتوثب والانطلاق ، كى أمضى فى حبه هو فقط وأخلص له طوال حياتى ...

أدركت ان لابد فى الزواج من عقل يضبط العاطفة ، وان العاطفة وحدها لهب سرعان ما يخبو . فخفت ان تكون عاطفة جمال المشبوبة هى مجرد حافز لشهوته البهيمية . ثم خفت أن يتبدل متى أشبع شهوته منى ، فتفتر عواطفه وتجف حماسته ، فيتعذر عليه ان يجد فى نفسه ذخيرة من فضائل العقل والصبر والهدوء والاتزان يمكن أن يستعين بها على الثبات فى حبه والاخلاص الدائم لبيته وامرأته .

وهذا ما وقع . كان جمال مفتونا بمحاسنى البدنية فقط . كان يشتهينى فقط . فتقلصت عواطفه بارتواء شهوته . غاض بغتة سحره ، وانطفأ خياله ، وابتردت حرارته ، وأصبح رجلا جاحدا مستهترا ، يهملنى فى غير اكتراث ، ويخدعنى فى مباهاة وتبجح ، ويغار على أمام أهله والناس غيرة مصطنعة ، مصدرها الخيلاء والكبر وحب الذات .

وبدأت أتعذب ..

كنت كلما أبحت جسدى لجمال ، أحسست انه يغتصبنى ، وانى انحط وأتدهور . فينبثق أمامى طيف حامد ، فيتفطر قلبى حسرة عليه . فأشعر ان زواجى بغيره كان مخادنة لا زواجا ، كان نزوة عاطفية آثمة ،

أعاقب عليها الآن فى صميم بدنى المنتهك وروحى الموزع المسلوب !

ولم أعد أجد العزاء الا فى طفلى ، فى ممدوح ، فى ابن حامد ... ولكن هذا الطفل الوحيد ، هذا الطفل الذى لم يقسم لى أن أرزق بسواه ، هذا الطفل العزيز المعبود هو الذى أتم الجزء الاخير من قصتى ، وهو الذى سخره القدر للفصل فى مصير حياتى .

كنا فى منتصف الشتاء والبرد فى عنفوانه . وكان جمال قد سافر الى الفيوم لتحصيل متأخر ايجار أطيانه . فتنفست أنا الصعداء ، ورحبت بالعزلة المنشودة أخلو فيها الى ولدى . غير ان الطفل اصيب فجأة بزكام عنيف ، وارتفعت درجة حرارته ، وبدأ يسعل سعالا جافا أقلقنى . فبعثت على الفور فى طلب حماتى . ففادرت بيتها وخفت الى . فأسرعنا واستدعينا طبيبا ، ما أن فحص ممدوح حتى صارحنا بأنه مصاب بنزلة شعبية حادة ، وان علينا ان نجنبه خطر البرد ما استطعنا ، وان نبقيه فى حجرته ، ونلزمه فراشه ، ونسعفه بالدواء فى مواقيته والا اشتدت عليه وطأة الداء واستهدف للخطر .

روعت أنا وفقدت صوابى . لم أستطع أن أتصور ابنى يستهدف للخطر ثم أتحمل المسئولية وحدى ولا أنبىء والده . فرجوت حماتى أن تتصل بحامد . فترددت لحظة ثم خاطبته بالتليفون . فأسرع لنجدتى وفى صحبته طبيب أكد ما قاله زميله ، وأقر علاجه ، وأسدى الينا نفس النصائح بعد أن طمأننا وسكن من روعنا .

وهم حامد بالانصراف فى اثر الطبيب . بيد انه كان شديد القلق على ولده ، متلهفا للاطمئنان التام عليه .

فتخلف بالرغم منه ، وظل واقفا عند فراش ابنه الوحيد ، يطوقه بذراعه ، ويلاطفه ويقبله والدموع تنهمر من عينيه .

وتأثرت والدة زوجى ، ورأت ان ترفه عن الرجل ، وتعد له على الاقل فنجانا من القهوة . فاستأذنت وتركتنا بمفردنا وخرجت .

وعندئذ رفعت أنا رأسى وتطلعت الى حامد ... لم أكن قد رأيته منذ طلاقنا غير مرتين . فتأملته وهو يحتضن طفلنا الوحيد ويبكى . فاختلجت اختلاجا عنيفا وتفطرت أحشائى . كل ما كنت أحمله فى صدرى من مشاعر الخيبة والندم والذل ، والحسرة على الماضى والحنين اليه ، استفاق بغتة فى نفسى ، وطوقنى ، وجرفنى ، ودفعنى دفعا الى حامد ... فدنوت منه وأنا أرتعش ... وما ان حدقت أيضا اليه ، ما ان تفرست فيه ، حتى شعرت شعورا عميقا ، شعورا غلابا دافقا ، انى كنت منذ الازل مشدودة اليه ، وانى لم أفارقه ، لم أنفصل أبدا عنه ! .. شعرت انه هو ، حامد ، هو فقط ، هو وحده زوجى ، وانى أحبه هو ، وأطلبه هو ، وأنشده هو ، ولا أستطيع الا ان اقرن وأمزج فى قلبى وكيانى بينه وبين هذا الطفل الذى انحدر من صلبه وخرج من أحشائى !

وعلى دهش منى التصقت بحامد ، والتصق هو أيضا بى . وانحنينا كلانا على طفلنا . فارتجفت أعضاؤنا ، وامتزجت أنفاسنا ، ومال كل منا الى الآخر ،

ولم نشعر الا وشفاهنا تتقارب وتتنادى ثم تتصل وتندمج فى قبلة مشغوفة طويلة ، تذكيها حرقة الفراق، ودموع القلق والالم !

وباغتتنا والدة زوجي ونحن تائهان . فانتفضت أنا وابتعدت عن حامد ولبثت فى مكانى جامدة . فوضعت المراة صينية القهوة على خوان وهى ترتجف وترمقنا بنظرة ساخطة ، ثم استدارت وهمت بالخروج. ولكن حامد الذى لم يتنبه الى انها قد باغتتنا ، استوقفها وقال لها انه مجبر على زيارتنا مرات للاطمئنان على ولده المريض ، وانه يرجو ألا نضيق بزيارته حتى يتم شفاء ممدوح ، ثم حيانا شاكرا وانصرف .

وما أن اختفى حتى عبست المرأة فى وجهي. تباعدت جهدها عنى . لم توجه الى غير عبارة واحدة وهى انها ستمكث معى ولن تغادر لحظة بيتى حتى يعود ابنها .

وكان الغضب والاحتقار يدويان فى صوتها. فاضطربت أنا وأوجست خيفة منها . ولكنى وقد سلب لبى لقاء حامد ، أعرضت عنها شامخة ولم أحفل .

وعاد جمال من رحلته قبيل المساء . فلم تمهله أمه ، واقتحمت عليه مخدعه وهو ما يزال ينضو عنه ثيابه ، وصارحته بما رأت ، ثم غادرت البيت مستشيطة وهى تهدر ...

وبرز الى جمال مشتعل العينين ، محتقن الوجنتين، واستفسرنى عن حقيقة ما حدث . فلم يسعنى ان انكر. اعتذرت اليه . طلبت منه الصفح عن هفوتى . ولكنه استهول اعترافى ، واعتقد اعتقادا راسخا انى قد ضللته وخدعته وكنت على صلة بحامد منذ زواجنا .

فالتهبت غيرته ، واضطرم كبره ، ومشى من فوره الى سرير الطفل ، وقال فى بغض وعيناه تقدحان الشرر :

ــ لن يدخل حامد هذا البيت أبدا ... لن يرى ابنه فى بيتى !

فحملقت فيه ذاهلة وصحت :

ــ ماذا تقول ؟ ! ..

فأجاب فى نبرة قاطعة :

ــ انه هو والده فعليه هو أن يتولى علاجه... يجب ان يحمل الطفل الى منزل أبيه !

فوثب قلبى فى صدرى وهتفت :

ــ ولكن ابنى مريض ... محموم ... ابنى الوحيد فى خطر .. ومن المحال .. أتسمع ؟ من المحال ان أخالف أمر الطبيب فأنقل ولدى فى مثل هذا البرد القارس من بيت الى بيت . فى وسعك انت ان تتصل بأسرة حامد وتمنعه من زيارتنا .

فقال جمال وهو يغلى :

ــ انه هو الوالد . واذا استفحل الخطر على ولده فيجب ان نستدعيه . وأنا لا أريد ... لا أريد أن أراه فى بيتى ... لا أريد أن أتحمل نحو طفله أية مسئولية. يجب ان ينقل الطفل الآن الى منزل والده !

فصرخت أنا كمعتوهة :

ــ أبدا ! .. لن يخرج ابنى من هنا ... لن يخرج ابنى من هنا قبل أن يشفى !

فألقى جمال على نظرة ساحقة ، ثم استدار ، واتجه نحو الطفل ، وأنهضه من فراشه ولم يلفه حتى بالبطانية . فوثبت أنا وأردت ان أدثر بها ولدى .

فدفعنى جمال فى عنف ، ثم نادى الخادمة وأمرها بأن تتبعه بعد أن تجمع فى علبة زجاجات الدواء وتحملها معها . فارتميت أنا على جمال وقد ضل عقلى، وجعلت ألتمس وأصرخ وأكافح لانتزع منه الطفل . ولكنه تملص فى غلظة منى ، وعاد فأهاب بالخادمة أن تتبعه . ففقدت صوابى ولم أعد أبصر شيئا . تهالكت على جمال . تشبثت به وأنا أتوسل وأبكى . ثم أذعنت مكرهة واختطفت معطفى . ولكن الرجل الغليظ القاسى صاح بى :

– انت مكانك هنا ! .. فى بيتى ! .. لن تخرجى! سأرافق الخادمة والطفل الى والده ! .. اما اذا أبيت انت الا ان تعترضى مشيئتى ، وتلحقى بولدك ، وتمكثى بجواره فى بيت حامد ، فاعلمى انك منذ الساعة طالق .. اتفهمين .. طالق !

فدنوت منه وثبت فيه بصرى المخبول وقلت :

– ليكن !

فصرخ :

– اذن فاخرجى .. اليك الطفل واخرجى حالا ...

وفتح هو الباب . فحملت طفلى بين ذراعى، وتبعتنى الخادمة ، وخرجت . خرجت الى الشارع، فاستقبلنى الليل ببرده القارس . فاشتد خوفى على ولدى وضممته الى صدرى جهدى وأنا أرتعش ... ولما حملتنا احدى السيارات الى منزل حامد ، تناولت علبة الادوية من الخادمة ثم صرفتها ، واستجمعت قواى وصعدت .

وما ان أبصرنى حامد والطفل بين ذراعى حتى تراجع وبهت . فطلبت اليه أن يسرع باستدعاء طبيب وأنا

أقص عليه ما وقع وأرتعد وأتحسس طفلى خشية ان يكون قد تأثر ببرد الليل فتفاقمت حالته .

ودب الذعر فى قلب حامد . فانطلق من فوره وعاد بطبيبه . ولكن الطبيب لم يكد يفحص ممدوح حتى صاح مهللا وطمأننا . قال ان الطفل قد نجا ، وان شفاءه أصبح مكفولا ، وان علينا فقط ان نرعاه وندفئه ونتبع نفس العلاج . ثم صافحنا مهنئا على ان يعود فى الغد أيضا ، ومضى .

انتعشت أنا وارتدت الى روحى ، واستضاء وجه حامد . هدأت أعصابنا . تراخت أعضاؤنا . قرت أنفاسنا المهتاجة ، وسهرنا معا بجوار الطفل... سهرنا بجوار طفلنا ساهمين صامتين ، نسبح فى نشوة ونتخبط فى حيرة . نسبح فى نشوة الثقة بشفاء ابننا والفرح بتلاقينا فى بيتنا ، ونتخبط فى حيرة قلبينا ، وفى أمر مستقبلنا ، وهل سيكتب لنا ان نعود ألى الحياة سويا أم سيمضى كل منا فى طريقه ، فينسى حبه وينسى ماضيه وينسى واجبه نحو ابنه الحبيب الوحيد ... ولبثنا هكذا ساعات طويلة ، نراود الماضى ، ونداعب الحاضر ، ونخالس المستقبل الغامض المجهول ... وفجأة ، تحرك الطفل . استوى على فراشه . جعل يسعل ويضرب الهواء بقبضتيه . فاندفعنا نحوه دهشين مذعورين . أخذته أنا بين أحضانى . حاولت انأسعفه بالدواء غير انه ظل يسعل سعالا خشنا متعاقبا . ثم اصفر وجهه ، واختنق صوته . فهززته هزا عنيفا وطفقت أناديه . ولكنه لم يجب .. لم يجب .. جمد رأسه الصغير أمامى . اندلعت عيناه الجميلتان فى

وجهى ، تقبض بدنه الهزيل المسكين وابترد بغتة بين ذراعى . فأرقدته على الفراش وتأكدت ... جن جنونى . فلطمت وجهى . مزقت ثوبى. مضيت أصرخ صراخ الثكلى العقيم وأنا أتلوى وأتقطع وأبكى : مات ممدوح !.. خدعنى الطبيب .. مات وحيدى .. قتله جمال ... لا ... لم يقتله جمال . لم يقتله المرض. لم يكن موته قضاء وقدرا . أنا التى صنعت له هذا القدر ... أنا الجانية ... أنا قتلت ولدى !

***

وكنت أتوقع من حامد أن يبغضنى ، ان يستهول رؤيتى ، أن يفر منى . ولكنه لم ينصرف عنى . لم يكرهنى . أشفق على . أيقن من توبتى وندمى . عاد وتزوجنى مؤمنا بأنه هو وحده كان منذ الابد زوجى ، وانه الآن وبعد أن مات ممدوح ، أصبح هو وحده أيضا والى الابد زوجى وحبيبى وولدى !

ملكة النحل

الفصل خريف ، ونسيم المساء يهب من النافذة المفتوحة ويندفق الى الحجرة حيث تجلس « سعاد » على مقعد تجاه أولادها الثلاثة الجالسين حول المائدة المستطيلة يستذكرون دروسهم . هذا هو ابنها الاكبر « محمود » منهمك فى مراجعة درس التاريخ ، وابنها الثانى « مجدى » مأخوذ بحل مسألة حسابية ، وابنها الصغير .« عادل » مكب على كتابه يستظهر قطعة من شعر المحفوظات . وهى ، سعاد ، تراقبهم ، تتأملهم ، وقلبها يخفق ، وبدنها يرتعش ، وعينها تخالس فى الوقت نفسه الساعة الكبيرة المثبتة فى الحائط ، ثم تتحول صوب النافذة المفتوحة ، وترمق الشاب ، الشاب الواقف هناك ، فى شرفة البيت المواجه لبيتها ، يحدق اليها ، ويبتسم لها ، ويدخن سيجارة . وينحنى كأنه يتلهى بالتفرج على زحمة الناس فى الشارع ...

عقارب الساعة تشير الآن الى الثامنة فقط . ولكن بعد ساعة ، بعد ساعة واحدة ، أى عندما تبلغ التاسعة تماما ، فان على سعاد ان تكون قد حزمت أمرها لتنهض ... يجب ان تنهض ، وترتدى اجمل فساتينها ، وتتأنق وتتعطر ، ثم تهبط الشارع ، وتتغلغل فى الازقة البعيدة فترة . ثم تسدل نقابها على وجهها ، ثم تكر

راجعة ، وتنسل انسلال اللص الحذر ، وتدخل البيت المواجه ، بيت ذلك الشاب المدعو « مصطفى » ...

انه ينتظرها . انه واقف فى الشرفة يتطلع اليها مستعجلا لقاءها . هو عزب يعيش بمفرده هنا . عيناه عسليتان ساحرتان . بشرته خمرية ساطعة . فمه ملىء وشهى . ابتسامته طيبة وحزينة ومتوسلة ...

منذ أن عرفته سعاد فى بيت صديقتها محاسن ، والتقت به فى رعاية تلك الصديقة مرات ، ولاطفها هو وغازلها ، ثم تعذب بصدها واعراضها ، وظل مع ذلك متشبثا بها ، يستجدى عطفها ويبذل قصاراه ليحنن قلبها ووجدانها ، أيقنت سعاد من صدق حبه ، فارتاعت وقاومت ... قاومت طويلا . ولكن نشوة يقينها استغرقتها . فاستضعفت فجأة وتخاذلت ، ولم تستطع الا ان تعد الشاب بأن توافيه فى منزله هذا المساء وفى تمام الساعة التاسعة ...

كانت امرأة فى نحو الاربعين ، وكان هذا أول موعد غرام لها مع رجل .

فما الذى أفقد سعاد صوابها ، وما الذى أيأسها من كفاحها ، وما الذى دفعها دفعا الى الاقدام على مثل هذه المخاطرة ؟ ..

انه زوجها ... انها تراه بعين خيالها ... لا تكاد ترمق مصطفى من النافذة المفتوحة ، حتى يضطرم حقدها . فتتمثل ذلك الرجل الذى شاء القدر أن يقاسمها حياتها ... أكان حقا زوجها ؟.. لا .. لم تجد فيه بارقة من عطف أو حنان ، لمحة من تقدير أو اهتمام. كان الاستهتار حيا ، والعبث مجسما، والانانية

والشراهة والفلظة فى أبشـــــع الحركات والـكلمات والصـــور . لم يفكر أبدا الا فى نفسه . لم ينشد من امرأته غير متعته . لم يعشق غير بطنه وكأسه وخلانه ، وبنات الشوارع يتعقبهن ليلا ويتصيدهن فى سيارته.. انه لا يسأل بل يأمر ، ولا ينبه بل يزجر ، ولا ينصح بل يصرخ ، ولا يصرخ الا ليضحك بعد فترة ويقهقه ، ثم يعود فيغضب لأيسر الهفوات ، فيسب ويشتم ، ويلعن الزواج والمرأة والاولاد ، ويصفق الباب خلفــه ويخرج .

ويالها من فزعة كفزعة المشرف على هاوية ، تلك التى ما تزال تحس بها سعاد كلما دخل زوجها البيت بعد منتصف الليــــل سكران ، وطاب له أن يضمها ويمتلـكها . رائحة الخمر تنبعث منه وتأخذ بمخنقها. عيناه الجاحظتان تنغرسان فيها وتطالبان بحقه عليها . شهوته الضارية تكاد أن تمزق قميصها ، فتشعر هى انها تنتهك وتغتصب وان لا حول لها ولا قوة .

هذا هو الموظف الـكبير الاستاذ جلال ، رجل متبجج متقلب شهوانى وأيضا بخيل ، يضن بالقرش الا على ملذاته ، ولا ينفق على بيته الا فى قصد وحرص معتمدا فى معظم الامر على مرتب امرأته ، ثم ينسى وجود البيت والاسرة اطلاقا ، فتضطر سعاد الى حمل العبء كله ، متجلدة وصامتة وصابرة .

أجل . كانت هى ، بعد أن تعود من المؤسسة التى تعمل فيها اكثر من نصف النهار ، هى التى تشتد فى محاسبة الخادم على تصرفاتها أثنـــاء غيبتهـــا ، وهى التى لا تألو جهدا فى العناية بالاولاد ، والســـــهر على

صحتهم ، والاهتمام بغذائهم وكسائهم ونظافتهم . فاذا كان المساء جمعتهم حول المائدة عقب ترتيب شئون البيت ، ومضت تحثهم على استذكار دروسهم ، وتراقبهم ، وتشاركهم عند الاقتضاء في تفهم أو حل ما يستعصي عليهم . ثم ترقدهم فى مضاجعهم ، وتدثرهم بالاغطية ، وتقبلهم ، وتظل الى ما بعد منتصف الليل نائمة يقظى ، تتوقع مقدم زوجها وهو سكران ، وترتعد فرائصها ويهبط قلبها خشية أن يكون زوجها قد خاب فى تصيد غانية واعتزم ان يقربها هى ...

تلك كانت حياة سعاد اكثر من عشرين سنة . جهاد واذلال ، بذل ونكران ، تضحية وانتهاك واغتصاب .

ثم زحف اليها القدر فجأة . أطل عليها بوجه عجيب. وجه صارم وباسم ، ملبد ومشرق ، منذر ومنقذ ، أفزعها وروعها ، وأفعم قلبها فى الوقت نفسه املا ونشوة وسعادة .

مد القدر يده ، يده الوانية المتلصصة ، وغرس فى حقل حياتها الموحش الجديب زهرة ... زهرة حب يانعة أشبه بشعاع شمس تألق فجأة فى اغوار كهف .

وهذه الزهرة اليانعة ، هذه الزهرة المتألقة العجيبة التى يفوح منها عبير بستان ، هى الآن هنا ... على مقربة منها ، فى متناول يدها ، فى مهب شوقها ولهفتها ، فى هذا المنزل الذى ينتظرها فيه مصطفى ، مصطفى الذى أيقنت انه نقيض زوجها ، والذى خف لنجدتها وأيقظها وقدرها وأحبها ! ..

ومضت ترمق الشاب ، وتتقاذفتها أمواج من اللهفة والحيرة والجزع .

وانقضى وقت طويل ، وعقرب الساعة يدور ، وعين سعاد تخالسه النظر بالرغم منها وترتجف ... ألا يمكن لهذا العقرب القاسى أن يتمهل ؟ .. لا ... لا قوة فى الارض تجعله يتمهل ! .. بلغت الساعة النصف بعد الثامنة والزمن يجرى ! .. الزمن يجرى أشبه بجواد طليق . الزمن يطوى اللحظات طى العشب تحت وثبات الريح . فهل تسرع سعاد وتذهب انى مصطفى . هل تنهض وتتجمل وتمضى . هل تغامر وتنقع غلة الثورة الجائشة فى اعماقها ؟ .. انها الآن امام ذلك القدر العاتى وجها لوجه . أتعنو له وتذهب ؟ .. لم لا ... انها ما تزال جميلة ، بل هى اليوم فى نضوجها اجمل منها الف مرة وهى فى شرخ الشباب . بيد ان الزمن أيضا يطاردها ، وينذرها بالكهولة والدمامة ولا يمنحها غير فرصة واحدة .. أفتدع اذن فرصة عمرها تفلت منها ؟ .. لا ... ستذهب ... نعم ستذهب !

ولكن أولادها ... أولادها الثلاثة ... أولادها الذين تبصرهم الآن مكبين على دروسهم بفضلها ، منبوذين من والدهم ومعلقين بأنفاسها ، ساكنين ومطمئنين وواثقين بها ... كيف ، كيف تقصيهم فجأة عن فكرها ، وتشرك معهم آخر فى حبها ، وتسلخ عنهم ولو أيسر جزء من صميم ذاتها وكيانها ؟ ..

لقد خرجوا من احشائها فى غمرة التمزق والالم والعذاب . عاشت طوال حياتها من اجلهم . وقفت عليهم وحدهم كل عواطفها ، كل مشاعرها ، كل ما كان يخفق به قلبها من حسرة على حظها ، ومن لهفة حارقة مذيبة على الحياة . كانوا هم عزاءها ورجاءها . كانوا

ثلاثة فى واحد . ثلاثة تصورت انهم رجل واحد . فهامت بهذا الرجل ، هذا الرجل المثلث الوجوه والابدان ، وجسدت فيه روح أولادها .

فكيف تنسى اليوم وجودهم ، كيف تفكر فى الغريب ولا تفكر فيهم ؟ ..

انظرى ، انظرى اليهم يا سعاد ...

هو ذا محمود الصبوح الوجه ، الفزير الشعر ، يرفع رأسه عن كراسه ويبتسم لك . وهو ذا مجدى الهادىء المتزن يسارقك النظر كأنه يشهدك على مثابرته واجتهاده. وهو ذا عادل الصغير الواسع الحدقتين المورد الخدين ، يضج ويتواثب ويضحك لك وهو يكد عقله ليستظهر قطعة الشعر من كتاب المحفوظات ...

لا ... انهم ليسوا ثلاثة .. انهم رجل واحد . رجل تجاه رجل . رجل تجاه القدر . فهل تظل سعاد مخلصة لهذا الرجل الذى صاغته من عصارة دمها ، أم تتنكر له وتؤثر عليه الرجل الآخر ، مصطفى ، الرجل المتربص الغريب الدخيل ؟ ..

يا لهذا السجن الذى تتخبط فيه سعاد ، سجن أولادها ، سجن أحشائها . أنها لترسف فى اغلاله . ومع ذلك فهى تشعر بالفرح هنا ، بل هى ترى النور هنا . ولكن هل هذا الفرح هو النشوة ، هل هذا النور هو السعادة . الا يمكن أن تكون النشوة والسعادة هناك ... هناك فى قرب مصطفى ؟ .. شىء بعيد وعميق يتردد فى سمعها ، يهتف بها ان النشوة دائما عمياء ، والسعادة فى الخيانة لابد ان تكون قاتلة ! .. ولكن أية خيانة ؟ .. ان سعاد لو نهضت الآن ، لو

ذهبت والتقت بمصطفى ، فهى لن تكون خائنة لزوجها الفظ الغليظ ، قناص الغوانى وعبد البطنة والخمر. هو لايستحق الوفاء . انها ستخونهم هم . ستخون أولادها . ستسرقهم . ستسرق منهم أغلى وأنضر جزء من فكرها وروحها ، اكوابا مترعة من حبها وحنانها ، تحملها بيد مكرهة وصاغرة ، وتسقيها فى ترخص وضعة وابتذال للرجل الدخيل الغريب ...

عقرب الساعة يدور ... الزمن يجرى ... أزف الموعد ... عشر دقائق هى الباقية ... ومع ذلك فسعاد لا تضعف بل تثبت ، لا تستسلم بل تكافح . ولكنها تشعر فى الوقت نفسه والحنق يذهلها ، انها كلما كافحت تعلقت ، وكلما قاومت تولعت ، وكلما تراجعت أقبلت ، وكلما حولت بصرها عن النافذة المفتوحة ، عادت فنظرت ثم اطرقت وانكمشت ، ثم عادت وتطلعت وهى ترتعد ...

أتخضع ؟ .. القدر يدفعها . حبها يلهبها ... احشاؤها تردها وتمنعها ...

ما اقسى ما تعانيه من توزع وتخبط وصراع . ألا ليت ذلك الشاب لم يسكن أبدا بجوارها . ليتها لم تلتق به أبدا فى بيت صديقتها . بل ليتها لم تعرف بقربه أبدا ثورة الحس ، وفورة الدم ، وجموح الرغبة ، ولواعج الجسد المحروم الظامىء الى اندماج اختيارى كامل ينقذه من ذل الطاعة وهول الامتثال والاغتصاب !

ماذا ؟ .. أتهفو نفسها الآن الى كل هذا ؟ .. وهل اضمحلت قواها وأفلت منها الزمام ؟ ..

الشاب يشعل سيجارة تلو سيجارة . بدأ ينفد

صبره . بدأ يروح ويغدو فى الشرفة كأنه فى قفص . انه ليطل من شرفته بنصف بدنه كأنه ينادى سعاد ، بل كأنه وقد فاضت به اللهفة يود أن يثب اليها .

يا لعنف الرغبة التى تملأ بغتة كيانها ، وتشوش عقلها ، وتكاد تعميها حتى عن رؤية أولادها .

حولى ... حولى بصرك ما استطعت ياسعاد ... لا تخافى بأس القدر . ألا تشعرين انه هو نفسه حافز ارادتك . استجمعى قواك وحدقى فقط الى أولادك . لا خلاص لك الا فى التحديق اليهم فقط ، فى تثبيت فكرك وارادتك عليهم فقط ...

العقرب الكبير يزحف ، والساعة لا تلبث ان تدق التاسعة ! .. قلب سعاد يدق أيضا دقا متعاقبا . دقا يكاد يخنقها وهو يحفزها . انها تتحرك . توشك ان تنهض ، ان تعتزم وتصمم ..

ولكن بصرها الحائر الزائغ المذعور ، تحول متصلبا واستقر على أولادها .

وما ان نظرت اليهم ، ما ان تأملتهم ، ما ان امعنت فى التحديق الى هياكلهم المثالثة الوجوه والمؤتلفة فى وجه واحد رائع ومعبود ، حتى تمزق كيانها ، وتفطرت أحشاؤها ، وتمثلت فى بارقة خاطفة صورة نفسها فى غد وصورة أولادها ...

بأى عين ستنظر سعاد الى أولادها فى غد لو سقطت . بأى ذراع تضمهم ، بأى صدر تحضنهم ، بأى فم تقبلهم وتحثهم على الفضيلة والخير وترشدهم . العين والذراع والصدر والفم والجسد وكل ما فيها لابد ان ينفصل عنهم ، ويستهول قذارته حيال طهارتهم ، ويرى

فى اطمئنانهم ، فى ثقتهم ، فى حبهم ، ما يذكرها بأنها قد خانتهم بالفكر والفعل أيضا ، وانها غادرة ومنـــــافقة وكذابة وغشاشة !

وتجسمت هذه الصور كلها أمام سعاد ، ثم اتسع أفق خيالها ، ولمعت فيه صور مروعة أخرى . فرددت فى نفسها صارخة :

ــ وبعد ؟ .. وبعد ؟ .. انى لو ذهبت اليوم ، فلا بد أن أذهب غدا وان أذهب بعد غد ، وأذهب فى الايام التالية ... وعندئذ ، عنـدئذ لن أرى فى العالم غير مصطفى ونفسى ، فيموت حب أولادى فى قلبى ، وقد يموت فى قلب مصطفى حبه لى ، فأموت أنا أيضـا وانتهى ! ..

انخلعت وملـكها الرعب . ظلت ترتجف . تاهت عيناها فى فضاء الغرفة . تخطفتها صـور المستقبل ، فشخصت ألى اولادها ، وأنت أنين مسلوب .

رات محمود ابنها الاكبر ، الصبوح الوجه ، الغزير الشعر ، ما يزال يرفع الوقت بعـد الآخر راسه عن كراسه ويبتسم لها.

ورأت مجدى الهـــادىء المتزن ، يصر كعادته على المثابرة والتحصيل .

ورات عادل ، عادل الصغير الواسع الحدقتين المورد الخدين ، ما يزال يضحك ويتواثب ويكد أيضا عقـله وفكره ليستظهر قطعة الشعر من كتاب المحفوظات...
فاجتاحها موج الحنان والسخط ، موج الحب والرعب، موج اليقظة والاستنكار . فلم تستطع أن تحتمل هدير تلك الامواج . فاستجمعت مدخر قواها ونهضت ...

نهضت كالنائم الحالم يمشى وهو يسير . ثم نصبت قامتها ، وتقدمت . ثم رفعت ذراعها كأنها تأخذ أولادها تحت جناحها . فاستغرب الاولاد منظرها ، وكفوا عن الدراسة ، وتلامحوا وتساءلوا مبهوتين .

واذ ذاك انتفضت وارتج بدنها كله !

تحرك العقرب الكبير ودقت الساعة التاسعة تماما . فترددت فى سمع سعاد دقات الساعةكأنها دقات القدر . أتنصت أيضا الى وقعها ؟ .. ان فى وسوسة هذا الانصات هلاكها وهلاك أولادها . وسكن فى تصور هذا الهلاك نجاتها وقوتها . انها تتصور ... انها ترى ... ترتجف ... هبت فجأة واقفة . تجلدت ومشت. مشت بخطى وئيدة ، بخطى ثابتة ، وذراعها ممدودة ، ورأسها متجمد ، وعينها لا ترتفع الى مصطفى ولو بشبه نظرة . ثم أرخت ذراعها ، ومدت يدها ، وفى بطء وعزم أغلقت النافذة ...

وارتدت الى مقعدها ، وارتمت عليه . ارتمت مغمضة العينين ، متساقطة الكتفين ، محنية الرأس، وقد غاض دمها ، وتقلصت تقاطيعها ، وحاكى وجهها لون الشمع بياضا . فظل ولداها محمود ومجدى يتفرسان فيها دهشين مذهولين . أما الصغير عادل فقد أخافه تبدلها ، وروعه تقلص تقاطيعها ولون وجهها فوثب من مكانه ، وجرى اليها ، وصاح بها وهو يهزها كأنه يوقظها :

ـ ماما ... ماما ... مالك يا ماما ؟ ..

ففتحت سعاد عينيها ، فرأت أبنها الصغير أمامها . فشهقت واستمسكت به . احتضنته بكل قواها وقبلته.

فأشرق وجه الطفل . فابتسمت هى . فابتهج محمود ومجدى وأسرعا اليها وأحاطا بهـا . فأجالت بصرها الـكليل فى أولادها الثلاثة ، ولم تحس انهم أطفـال ، بل لم تحس انهم رجل واحد كما كانت تتصـور . أحست انهم ثلاثة رجال ، ثلاثة رجال أقوياء ، وانها فى حمايتهم . فتطلق وجهها الشمعى واستضاء ، وأرسلت من أعماق صدرها نفسا مستطيلا . ثم طوقت أولادها بذراعيها كما يطوق الغرقى اليائسون شاطىء الخلاص، وابتسمت أيضا ...

ولـكى تطمئنهم وتطمئن نفسها ، وتفرج عنهم وتفرج عن نفسها ، مالت بغتة الى ابنها الصـغير ، وبذلت قصاراها لتضحك ، وأهابت به وعيناها تبرقان :

ـ عادل ... مش تفرجنـا بقى يا عادل .... وتسمعنا حاجه من الشعر اللى عليك فى المحفوظات ؟

فأفلت الطفل لفوره من حضنها ، ووقف فى وسـط الغرفة معتزا وشامخا ، وحيا الجميع فى رشاقة ، ثم لوح بذراعيه وأخذ ينشد :

تأمل ملـكة النحـــل
تحف بهـا رعاياهـــا
تســوس الملك بالعـدل
وترعى الشعب عينـاها .

فصفق محمود ومجدى ، وغمغمت ســعاد وهى ترتعش :

ـ ملـكة النحل ... ترعى الشعب عيناها ! ..

وجاهدت جهاد المستميت كى لا تبكى ...

قصص من التاريخ

الحب الأعلى

كان ذلك فى ضاحية من ضواحى مدينة « طيبة » فى عهد الاسرة الثانية عشرة .

وكان اليوم يوم عيد الاله آمون وأهل الضاحية جميعا يتأهبون لزيارة معبد الاله العظيم .

وكان الطريق من الضاحية الى المعبد محفوفا بتماثيل الحملان ، اذ كان الحمل مكرسا لذلك المعبود ، وكان المصريون يعتقدون ان روح آمون تحل فيه .

ولم تكن الشوارع محفوفة بتماثيل الحملان فقط ، بل كانت مزدانة أيضا بتماثيل أخرى تصور آمون تارة برأس حمل ، وأخرى برأس انسان وقرنى حمل ، وعلى رأسه قرص الشمس « رع » ، وريشتان عظيمتان ، وفى احدى يديه صولجان وفى الاخرى علامة الحياة .

وكان البرد قارسا ، والسماء ملبدة بالسحب ، والريح تارة تصفر وتارة تهدر هديرا مروعا أشبه بهدير موج مصطخب .

وبرغم هذا البرد فقد كان كل ما فى الضاحية مبتهجا ما خلا منزل العجوز الام « نازيتا » .

كان المنزل صامتا موحشا كئيبا ، قائما فى وسط شارع ضيق ، تنهض فى احدى زواياه شجرة كبيرة ،

وبالقرب منها جدول صغير يترقرق ماؤه فى غمغمة رتيبة أشبه بزفرة ما لها من نهاية .

وكان الفتى المريض « حابى » ممددا على فراشه ، محتقن العينين ، متقد الوجنتين ، مشعث الشعر ، يرهف السمع جهده ، ويحدق الى باب حجرته وهو ممسك بذراع أمه ، يضمها الى صدره فى عنف ويلهث.

وكانت أمه تحبه أعمق الحب . وكان هذا الحب هو الذى أفسد طبعه ، وولد فى نفسه بغضا عميقا لاخيه .

كان لا يطيق من أمه ان تعنى بأخيه «حوريس» . كان يكره هذا الاخ الدخيل الذى أعقبه والده من امرأته الاولى . كان كلما أبصر أمه تتحدث الى أخيه أو تستفسره عن شىء أو تتفضل عليه بكسرة خبز ، يغلى الدم فى عروقه ، وتغشى الظلمة عينيه ، وتأكل الغيرة قلبه .

والحق ان الام « نازيتا » كانت ، منذ أن توفى زوجها، تؤثر ابنها حابى بحبها وعطفها وحنانها ، وتهمل أخاه حوريس ، بل كانت فى صميم نفسها تتبرم أشد التبرم بوجود حوريس فى بيتها وتود أن تتخلص منه فلا تستطيع .

وكان حوريس شابا فى نحو الثالثة والعشرين ، مصابا بشلل فى ساقه اليسرى ، وبرجفات عصبية متعاقبة فى وجهه ويديه ، يدب على عكازين ، ويعجز عن مزاولة أى عمل ، ويعيش من بقايا الطعام الذى تتفضل به عليه زوجة أبيه . بيد انه كان عريض الجبهة ، اسود الشعر ، واسع العينين ، دقيق الانف والفم ، جميلا . فكان جماله يثير ثائرة أخيه حابى ، ويوغر

صدره حقدا عليه ، ويضاعف نار الحســد والغيرة فى قلبه تأججا واشتعالا .

ولم يجد حابى منصرفا لغيرته الا فى التهافت على أمه ، واحتجازها لنفسه ، ووقف عواطفها عليه وحده، ومحاولة الفصل بينها وبين كل حركة أو اشارة يمكن ان تصدر عنها بالرغم منها وتصلها واو لحظة بأخيه حوريس .

وكانت الام نازيتا لا تفتــأ تمعن فى الاهتمام بحابى واغفال حوريس . كانت تحنــو على حابى فى حرارة مشبوبة وتظل تلاطفه وتقبله كأنها عاشقة لا أم . كانت تحرم حوريس وتعطى ابنها ، تعرى حوريس وتكســو ابنها ، ولا تجد لذة أبلغ وأمتع من امتهــان حوريس وتحقيره أمام الناس .

هذا الايثار المقرون بأبلغ ضروب الحب أشــاع فى نفس حابى ، فوق غيرته وحقــده ، ضربا من البغض العابس المتجهم القاسى ختم على بصره وشوش عقــله وفكره ، واستبد به استبداد الهوس والجنون .

والواقع ان هذا البغض كان ينبع فى نفس حابى من شيء أبعد وأعمق . كان مثــاره حب حوريس لقروية حسناء فاتنة تدعى « ناجاو » ، وشفقة هــذه القروية على حوريس ، ورحمتها النزيهة به ، ووقوفها اللحظات الطويلة تتأمل عينيه السوداوين الساحرتين ، وتستمع الى صوته الرخيم وحديثه العذب .

وكان حابى يتميز غيظا كلما أبصر ناجاو تتحدث الى حوريس .

كان لايستطيع ان يتصور ان صعلوكا كسيحا مثـل

أخيه يمكن ان يكون أنسانا له قلب واحساس . كان لايستطيع ان يتصور ان هذا الصعلوك الكسيح يجسر على التطلع الى أمرأة أو حتى على التفكير المجرد فى شخص امرأة ، كما انه كان لا يستطيع ان يتصور كيف تشفق على حوريس حسناء فاتنة ، وكيف تخصه بعطفها وحنانها ، وكيف تهزأ بالناس وتتحداهم ، وتظل واقفة فى صحبة ذلك الكسيح الصعلوك تبادله أطراف الحديث وهى ترمقه بعين ناعسة وتبتسم .

هذه الجرأة الوقحة اجهزت على البقية الباقية من صبر حابى وزادت جنون غيرته تلهبا واضطراما .

وها هو ذا ممسك بذراع أمه ، يومىء اليها ان تحدق الى الخارج ، ثم ينهض من فراشه بغتة ، ويتدثر بغطائه الصوفى السميك ، ويتجه نحو الباب وهو يرتعش .

وصاحت به أمه فى لهفة :

ــ احذر البرد . انت مصاب بنزلة رئوية حادة قد تقضى عليك .

فدفعها عنه فى عنف ثم تحول وانكمش خلف مصراع الباب ، ثم أشار الى أمه أن تحتجب هى أيضا ، ثم اشرأب بعنقه ونظر الى الشارع الضيق وجحظت عيناه.

كان أخوه حوريس متربعا فى احدى زوايا الشارع ، ملقيا بعكازيه على الارض ، متطلعا بعين مذهولة مفتونة الى الفتاة الرائعة الجمال ناجاو التى كانت منحنية عليه مصغية الى حديثه ، تبادله نظرات الود والعطف ، وتبرز من جيبها قطعة نقود تحاول أن تدسها فى يده قبل أن تذهب الى المعبد لتشارك أهل الضاحية فى الاحتفال بعيد الاله آمون .

وتصاعد صوت الفتاة يقول :

ـ أنا غاضبة منك ياحوريس ... لماذا ترفض مساعدتى ؟ .. الصديق لا يتصدق على صديقه بل يشاركه الهم والالم والعذاب .

فرفع اليها الشاب عينيه الساحرتين وقال فى صوت ممزق :

ـ لن أقبل منك الحسنة أبدا ... أنا أحبك يا ناجاو حبا عظيما .. حبا يائسا .. حبا مستحيل التحقيق. ولكنى أريد مع ذلك ان أظل فى عينيك رجلا ... ولو انى استحلت فى نظرك من رجل الى شحاذ ، فلا بد ان تكرهينى ، ولا بد ان أفقد عطفك واحترامك الى الابد . فردى نقودك الى جيبك ، وامنحينى فقط ما الفته من ضوء ابتسامتك وسحر حديثك . هذا هو الفذاء الذى ينشده جسدى وقلبى . هذا يكفينى . وهو فضل عظيم أوليتنىاياه أنا المخلوقالذى لايستحق ان يطلق عليه لقب انسان . فابتسمى يا ناجاو . ابتسمى أيضا ... اجل .. هكذا .. أنا الآن سعيد. فقرى انت نفسا وافرحى... اذهبى الى المعبد فىحفظ الاله المجيد وصلى ... صلى يا ناجاو من أجلى !..

وارتجفت الفتاة وأوشكت الدموع أن تنهمر من عينيها . ولكنها تمالكت نفسها وقالت :

ـ ان كبرياءك تعذبنى يا أخى الحبيب ، وتشعرنى بأنك تأبى الا ان تجعل فارقا بينك وبينى . كنت اعلم انك سترفض نقودى ، فأردت مع ذلك أن أسعدك وانسى عذابى ... انظر . لقد نقشت على ذراعىاليسرى صورة الطائر المقدس « ايبيس » حامل روح رب

الحكمة « توت » . فتقدم وقبل الصــــورة ، وهكذا يصبح يومك حقا سعيدا وكذلك يومى .

فانحنى الشاب على ذراعها اليسرى ، وقبل فى خشوع صورة الطائر المقدس ، وغمغم :

ــ يا لعبيرك المسكر يا ناجاو .

فقالت وهى تتثنى :

ــ لقد تعطرت بعود « الـكبا » بعد أن خلطته بالمر والحبة الخضراء ... تعطرت من أجلك وحدك ... وانى لاستغفر آمون الرحيم من ذنبى ...

وملـكتها الشــفقة وبرح بها الحب . فهتفت وهى تبسط يديها على وجه الشاب وترقيه بتعويذة مجربة ناجعة :

ــ شفتك العليا هى شفة ايزيس ، وشفتك السفلى هى شفة نفتيس ، ولحمك هو لحم أوزيريس . وانى لأشبه أعضاءك بأعضاء الآلهة كى يخشاك كل روح شرير وينصرف اليوم عنك !

وابتسمت له ثم طوقته بذراعها وانتزعت من صدرها زهرة وقالت :

ــ لقد علا النيل ونبتت فى الماء زهرة اللوتس هذه.. انها بيضاء مثل قلبى ... فاليك هى ... خذها قبل ان أرحل ...

وقدمت اليه الزهرة ، وغافلتــه وهو يتنشــقها ، واختلست من جبينه الناصع قبلة ، وهمت بالرحيل . ولـكنها سرعان ما أجفلت وتراجعت وجمدت . جمدت اذ أبصرت حوريس وقد اصفر لونه وتشنجت تقاطيعه، يشيح بوجهه بغتة ، ويقبض على بطنه بيــده ، ويئن

ويزفر ويتلوى ، وهو يغالب نفسه ويحاول مع ذلك ان يبتسم

فانحنت عليه الفتاة ملهوفة وصاحت :

ـ ما بك ؟

ففمفم وهو لا يجسر على التطلع اليها :

ـ أنا جائع ... أخى يكرهنى كما تعلمين ، يكرهنى ويعذبنى ... وكذلك امرأة أبى . ولقد برمت نفسى اليوم بالحياة معهم ، فأبيت أن آكل خبزهم ، وخرجت من المنزل دون أن ازدرد الرغيف الذى اعتادوا ان يتفضلوا به على كل صباح بدون ادام ، امعانا فى احتقارى ، واغراقا فى التنكيل بى .

فصرخت الفتاة :

ـ سأجيئك حالا بخبز وجبن .

فأمسك بها وهتف :

ـ لا جدوى ... ستفوتك المشاركة فى الصلاة ... لا تخافى على ... لن يكون فى مقدورى ان اغالب الجوع طويلا . لابد ان أعود الى البيت . لابد ان أحنى رأسى صاغرا . لابد ان أطلب الرغيف ... ولا بد ان آكله ولو كان مغموسا فى الدم ... اذهبى .

فجثت ناجاو على الارض وتوسلت اليه أن يقبل نقودها . ولكنه أبى . فحاولت ان تقنعه . فازداد تعففا وتشبثا . فلم تجد بدا من الامتثال لارادته ، والتمست منه ان يسرع الى البيت ، ثم وعدته بأن توافيه فى هذا المكان نفسه صباح الغد ، وغمغمت :

ـ لتحفظك الآلهة من كل روح خبيثة ، وليحمك حبى ويسحق عند قدميك « ست » اله الشر اللعين .

ثم انحنت عليه مرة ثانية ، وفى شفقة عميقة مريرة ، قبلت جبهته الناصعة ومضت .

ورزح الشاب تحت وطأة الالم . أحس ان امعاءه تكاد تتمزق . فلم يستطع مواصلة الصبر والاحتمال ونهض .. نهض خائرا محطما ، والتقط عكازيه ، ودسهما تحت ابطيه ، وطفق يثب بهما على الارض وثبا، ميمما وجهه شطر البيت .

وعندئذ ، وقبل ان يصل الى عتبة الباب ، تحول حابى صوب أمه ، وارتمى عليها ، واحتواها بين ذراعيه، وطفق يهزها هزا عنيفا ، ويصرخ وهو يسعل :

ـ لن يدخل ... لن يدخل هذا البيت ... لاشىء له فيه حتى ولا حظيرة الماشية ... هذا البيت أوصى به والدى لك انت يا أماه ... منحك اياه قبل ان يموت ... فلماذا يعيش فيه هذا الصعلوك الدخيل... لقد تفضلت عليه بالقوت والحياة ... ولكنه جاحد .. جاحد ومتكبر .. فانبذيه .. لا أريد أن أراه هنا .. لن يبيت الليلة هنا .. لن يدخل !

فاضطربت الام وطيبت خاطر ابنها ثم حاولت ان تثنيه عن عزمه . ولكنه استطرد وهو يرتعد ويسعل :

ـ لو دخل البيت فسأخرج أنا منه ... وانه لاحب الى ان أهيم على وجهى فى غمرة هذا البرد القارس ولو استهدفت للموت من ان أظل هنا وصورة هذا الشقى نصب عينى . لينصرف عنا اليوم على الاقل.. لا أطيق رؤيته .. لا أطيق وجوده .. هذا أقوى منى .. هذا يمزقنى ويوشك ان يقضى على .

وهم بالاندفاع نحو الباب . فأرسلت أمه صرخة

مدوية وتعلقت به ، وفى تلك اللحظـة أبصر حوريس أمامه . فاستشاط غضبه ، واضطرمت فى قلبه جدوه الحقد . فضم قبضته وصاح :

ـ أقسم بالآلهة انك لن تدخل .. من تظن نفسك حتى ترفض الحسنة وأنت جائع ؟ .. اشـلل وعجز وجوع ثم كبر وغطرسة وتبجح ؟ .. أذهب اليها .. فى وسع تلك الفاجرة ان تطعمك .. اذهب .

فحدق اليه حوريس ولم يتكلم . لم يتحرك . لبث جامدا كأنه تمثـال ، ثم ترنح فجأة وتطوح . ولـكنه تشبث بعكازيه ، واستند الى جدار الحائط فترة ، ثم استنهض عزيمته ، واستدار فى بطء وخرج الى الشارع مطأطأ الرأس ، محدودب الظهر ، وارتمى تحت الشجرة الـكبيرة البعيدة عن البيت .

وتنفست الام الصعداء ، وقالت لابنها وهى تلاطفه وتدفعه فى رفق الى حجرته :

ـ عد الى فراشك . تدثر بأغطيتك ، واحذر البرد وسرعة التأثر والا عاودك السعال .. اطمئن .. لن أدعه يدخل .. لن يعود اليوم الى هنا .. سيقبـل الحسنة من صديقته ، وسيبيت الليلة بالمجان فى أحد المذاود فى مأوى العبيد المتشردين .. عد الى فراشك واهدأ .

وأسرعت فهيـأت له شرابا سـاخنا ، وأرقدته فى فراشه ، وراكمت عليه الاغطية ثم كرت ثانية الى المطبخ، وجاءته بطعام الافطـار مؤلفا من خبز وجبن وبيض وحلوى .

ولما هدأ وشرع يأكل ، اطمأنت عليه . فارتدت اجمل

غلائلها . وألقت وشاحا على كتفيها واستأذنت ابنها فى الذهاب الى المعبد لتأدية الصلاة المفروضة عليها فى عيد الاله آمون .

وخرجت الام ولبث حابى بمفرده ، منكبا على الطعام، يقضم الخبز الشهى ، ويستمرىء مذاق الجبن والبيض والحلوى ، ويتأمل ...

وفجأة ارتعد . هبط قلبه فى صدره . انبثق امامه الطيف . طيف الحسناء الرائعة الجمال ناجاو. فتفرس فى الطيف وهو ساهم .. ثم أبصر الحسناء.الحسناء نفسها .. رآها رأى العين .. رآها وهى تجثو على الارض وتنحنى وتقبل حوريس . فسقطت اللقمة من يده وغمغم :

ـ لقد قبلته .. نعم قبلته .. وأنا .. أنا .. لم تقبلنى أبدا غير أمى . لم تنظر الى امرأة أبدا غير امى. لم تعطف على أبدا غير تلك المخلوقة المهدمة العجوز التى تنفث قبلاتها من فم ضامر الشفتين ، نخر الاسنان ، كريه الرائحة . على انى لست دميما ، ولا كسيحا ، ولابائسا . وبرغم هذا فلا حظ لى .. الحظ كله له وحده ، والقبلة الناعمة له وحده ، واجمل فتاة فى القرية تفكر فيه ! ..

وغام بصر حابى وعاد يأكل . ولكنه غص باللقمة وهو يرتجف . فنحى الطعام عنه ، وانطوى على نفسه ، وجعل ينعم النظر أيضا ويتأمل ...

ومن عمق حسده وغيرته وحقده ، انبعثت فى ذهنه خواطر ثائرة ، وأفكار غريبة ، مازجت الطيف الجميل، ثم اختطفته اختطافا ، وحملته على أجنحتها ، واختفت

به فى ظلمة بعيدة ، وعادت تحوم وتتجمع لتستقر آخر الامر على شخص حوريس ...

وحاول حابى ان يطرد عنه تلك الافكار وينام . ولكنه لم يستطع . ملكته قوة خفية ، استبدت به فكرة ثابتة . فأسلم لها عقله وحواسه ونهض ... نهض وهو يزفر ، واندفع نحو الباب كأعمى ، ثم فتحه فى عنف ، واستقبل فى غير اكتراث هبات الهواء القارس ، وخرج الى الشارع الضيق ، وأجال الطرف حوله يبحث عن أخيه ...

ولبث واقفا وأعضاؤه تختلج وأسنانه تصطك .

وفجأة لمح أخاه .

وكان حوريس ما يزال قابعا تحت الشجرة ، يئن ويتلوى ، يغالب الجوع الذى يمزق أحشاءه ، وتأبى عليه كرامته أن يعود الى البيت مرة ثانية ، وان يلتمس من أخيه ولو كسرة خبز . وكان قد شاهد زوجة أبيه وهى منطلقة الى المعبد فلم يتجه اليها بكلمة ، ولم تتأثر هى بحاله أو تشعر بوجوده ومضت فى طريقها غير حافلة .

وكان الشارع الضيق خاويا ، والقرية كلها هامدة ، وأهلها جميعا قد ذهبوا الى المعبد ليحتفلوا بالعيد . فظل حوريس مرتميا تحت الشجرة وحيدا محطما منبوذا ، يعلم علم اليقين انه لو استضعف واستنجد فلن يجيبه غير الصدى .

وعزم ان يسد مسغبته ببعض أوراق من فروع الشجرة التى احتمى بها . فمد يده وانتزع الاوراق وحاول ان يزدردها . ولكنه احس لها فى فمه مرارة

خانقة ووقدا كوقد النار . فالقى بها ، وانهار أمله ، بل تداعت كرامته ، وسلم بضعفه وعجزه ، وفكر عنـدئذ فقط فى أن يستجمع البقية الباقية من قواه ويذهب الى المعبد ، ويريق ماء وجهـه ، ويطلب الصـدقة من المحسنين .

وهم بأن يتحامل على نفسه وينهض. واذ ذاك أدركه أخوه . تسلل اليه حابى من خلف جـذع الشـجرة ، وانحنى ، وتحجب فى أغصانها . ثم غافل الشاب وهو شارد ، ومد يده الثابتة الغاشمة ، واختطف العكازين ، ثم تقهقر بضع خطوات وظل واقفا .

وتلفت حوريس كمخبول وأبصره . أبصر أخاه وفى يده حياته . أبصره يبتسم ويهدر . فأدرك انه اختطف العكازين ليجبره على البقاء حيث هو ، ليحول بينه وبين السعى وراء قطعة خبز ، ليقتله جوعا ويتخلص منه . فجن جنونه . أرسل صيحة مدوية ثم بسـط ذراعيه ملتمسا متوسلا . ولـكن حابى لم يتحرك . لم يتأثر . لبث يحدق الى أخيـه متوقعا منه ان يتقوض ويلفظ النفس الاخير . بيد ان حوريس الذى كان يتخبط فى حيرته وشلله وعجزه ، فى حنقه وجنونه ويأسه ، صارع العذاب جهده ، وانبطح على الارض ، وأنشب أظافره فى التراب ، وطفق يزحف بجمع قواه المتشبثة العنيدة الثائرة وهو يصرخ :

ــ اغثنى .. اغثنى يا آمون العظيم ، يا أشـعة الشـمس المشرقة ، يا واهب الارض الحرارة والقوة والخصب ، اغثنى ... لا تحالف اخى مع القدر الظالم على !

ودبت فى عروقه حياة لا عهد له بها . تصلبت عضلاته، توترت أعصابه ، واستشعر كأن ساعديه قد استحالا الى قطعتين من فولاد . فانطلق يزحف وهو يزأر، وحابى يتبعه النظر مبهوتا ويتراجع وهو يرتعد .

وكانت الريح تصفر ، وأغصان الشجر تصطفق ، وغبار الارض يموج وينعقد حول نفسه وينتشر فى الهواء البارد ويعمى البصر . فأحس حابى ان هبات الريح تدق صدره كالمطارق ، وان البرد يلهب بدنه كوقع السياط ، وان الاعصار يوشك ان يطرحه هو الآخر على الارض ويطويه . فتنبه اذ ذاك الى نفسه . أدرك انه مريض ، فأعرض بغتة عن أخيه ، وتركه يزحف ، وتحول من فوره وضم على العكازين أصابعه ، وانطلق يعدو الى البيت وهو يتعثر ويرتعش ويسعل .

واستطرد حوريس الزحف وفكره مسدد الى هدفه ، وضعفه يوحى اليه القوة ويدفعه الى الحياة .

وبعد لحظات خالها دهرا ، طالعت عيناه الاعمدة الكبيرة ، وترامت الى سمعه أصوات المرتلين . فأعمل ذراعيه فى الارض الصلبة ، وحث اعصابه وعضلاته ، واستطاع آخر الامر أن يصل الى باب المعبد .

وما ان لمست جبهته عتبة الباب المقدس ، حتى استجمع آخر ما كان مدخرا فى صدره من قوى ، وصرخ :

ـ ناجاو .. ناجاو .. الغياث .. النجدة ..

وعلى دهش منه أحس ان كفاحه لم يصرعه بل زاده على النقيض بأسا وقوة . فاندفع ونفذ الى المعبد ومضى يردد :

ـ ناجاو ..

وكانت جموع العذارى ، وفى مقدمتهن حبيبته ، ملتفة حول تمثال الاله آمون ، مرفوعة الاذرع ، مشرئبة الاعناق ، تنشد فى حرارة وحماسة نشيداً رائعاً ملؤه التسبيح والتمجيد .

وكانت العذارى ترتل ، ورئيس الكهنة يصاحبهن، والكهنة جميعا ينقرون على دفوف صغيرة ، وجمع من الاطفال فى شفوف رفافة بيضاء ينثرون الورد على الاله من سلال مشدودة الى أعناقهم ، لا تكاد تفرغ حتى يتزاحم عليها الجمهور ، ويملؤها بألوان من الورد أبى الشتاء القارس الا ان يكون معظمها صناعيا وان تصوغه أيدى الارامل واليتامى احتفالا بيوم العيد .

ولما أوشك حوريس ان يبلغ حرم المعبد ، كانت الاناشيد والتسابيح قد انتهت ، فتنبه اليه الجمهور وأحاط به . فظل يزحف حتى أدرك رئيس الكهنة . فتعلق بأهدابه ، وصاح :

ـ أريد أن أرى ناجاو .. أنا جائع .. أحشائى تتمزق .. أخى أراد أن يقتلنى .. أوغرت زوجة أبى صدره حقدا على .. حرمنى كسرة الخبز .. طردنى من بيته ثم غادر فراشه وهو مريض ، وغافلنى وأنا راقد تحت جذع شجرة واختطف منى عكازى .. ولو ان الاله آمون لم يمدنى بفيض من قوته لما استطعت ان ازحف الى هنا ولمت ولا ريب فى الطريق .. اين ناجاو ؟ ..

فأسرع اليه نفر من المصلين وأسعفوه ببعض ما كانوا مزودين به من خبز وجبن وفاكهة مجففة . وترامى

صـوته الى مسمع ناجاو التى كانت تتحدث الى أبيهـا المزارع الشيخ ورهط من صديقاتها . فأجفلت وذهلت ثم نحت عنهـا فى عنف والدها وصـديقاتها ، وشقت زحمة الجماهير . ثم اقبلت على حوريس مذعورة وانحنت

عليه . طوقته بذراعيها ، ونظرت اليه .. نظرت الى عينيه الـكليلتين الزائغتين ، والى خـديه الشـاحبين الغائرين ، ووجهه الضـــامر المتقبض الملوث بالعرق والتراب ، وتفطر قلبها .

أذهلتها القصة الفاجعة . هالتها المأسـاة المروعة . كبر عليها ان يراد الموت والهلاك لحبيبها المسكين على

هـذه الصـورة الغادرة النكراء . فانثنت الى رئيس الـكهنة ، وارتمت عند قدميه ، وتشبثت به ، وصاخت وعيناها تقدحان الشرر :

ــ أيرضيك وأنت سيد ضاحيتنا وحاكمها الفرد ، أن يحاول أخ قتل أخيه ثم يظل بلا عقاب ؟.. أيرضيك ان ترتكب هذه الجريمة فى مثل هذا اليوم المقدس ؟..

لقد عودتنا النزاهة والصرامة فى احكامك ، فمر باجراء تحقيق عادل ، واقض على المجرم بالعقـــاب الذى يستحقه .

وانكبت على رئيس الـكهنة تلثم يديه .

وعندئذ وبينما هى تتوسل وتبكى ، برزت الام نازيتا من بين صفوف الجماهير ، وتقـدمت صـوب رئيس الـكهنة ، وقالت شامخة متحدية وهى ترمق الفتـاة بالنظر الشزر :

ــ لايمكن أن يكون ابنى قاتلا .. لايمكن أن يكون المريض قاتلا .. هذا الشقى الـكسيح موتور ، يحقد

على أخيه ويلفق له التهم غيرة وحسدا .

فصاح حوريس :

ـ انها كاذبة ، لا تعرف الحب والحنان الا لابنها القاتل الذى حملته فى أحشائها .

فرددت المرأة :

ـ لم يقتل .. واذا وقعتم عليه أى عقاب ، فسأذهب أنا الى الحاكم الاعلى ، حاكم طيبة ، وأقتحم داره ، وأرفع أمرى اليه .

فتطلع اليها رئيس الكهنة لحظة ثم أقصاها عنه ، ونادى ثلاثة جنود من حرس الهيكل ، وقال لهم :

ـ رافقوا هذه المرأة الى دارها ، واحذروا ان تغافلكم وتفر بابنها . أما نحن فسنحمل هذا الشاب المسكين وسنلحق بكم الى بيتها . وهناك نبدأ باجراء التحقيق.

وأحاط الحرس بالام نازيتا ، واقتادوها عنوة وهى تتملص وتصرخ .

وكان على رئيس الكهنة ان يتم صلاته الختامية الجامعة . فاتجه نحو قدس الاقداس ، وصلى فى صحبة الجماهير ، ثم أشار الى المصلين باخلاء المعبد ، وأمر اثنين من الكهنة أتباعه فحملا حوريس الذى كان يتطوح بين أيديهما أشبه بجثة هامدة .

وخرجوا تتبعهم الجماهير ، وناجاو فى مقدمتهم ، ووالدها الشيخ يستغرب حماستها ، ويتعجب لثورتها ، ويستنكر منها هذا الاهتمام البالغ بشاب بائس كسيح.

وفجأة ، وقبل ان يبرح الموكب الميدان الكبير الذى ينهض المعبد فى وسطه ، شوهد أحد رجال الحرس الذين رافقوا الام نازيتا ، يقبل مسرعا نحو الميدان حاملا

بيده العكازين ومتجها صـــوب رئيس الـكهنة . ثم شوهدت الام نازيتا نفســها ، محلولة الشعر ، ممزقة الثوب ، ملطخة الرأس والخدين بالتراب ، تقبل راكضة كمعتوهة، وتسبق الحارس، وتشق بذراعيها الضامرتين عباب الجماهير ، وتنــــــدفع نحو الـكاهنين اللذين يسندان حوريس ، وتحاول ان تغــافلهما وتنقض على الشاب لتفتك به .

وأوشكت بالفعل أن تصل اليه وتنشب أصابعها فى عنقه . ولـكن الحارس كان قد لحق بها ، وتمكن منها ، وقال فى صوت جهير وهو يحتويها بين ذراعيــه ويلقى بالعكازين على الارض عند قدمى حوريس :

ــ هذا هو دليل الجريمة .. البرهان القاطع على ان حابى قد غادر فراشه متعمدا ليقتل .. اراد أن يقتل فى يوم عيد الآله آمون .. ولـكنه هو .. أتسمعون ؟ هو الذى مات !

فوجمت الجماهير وتراجعت واســـتطرد الحارس يقول :

ــ لم يستطع المجرم المريض ان يتحمل وطأة البرد القارس .. اشتدت عليه نوبة المرض ، ومات الأن امام أعيننا وهو يسعل ويبصق الدم ! ..

فتصاعدت صيحات الجماهير :

ــ المجد لآمون . اقبضوا على العجوز . اقبضوا عليها قبل أن تفتك بالشاب البرىء .

وأحاطت الجماهير بالام نازيتا وأمسكت بها . ولكنها وقد أفقدها صوابها موت ابنها والهبتها رؤية أخيــه الـكسيح حيا أمامها ، منتصرا عليهــا ، ومحميــا من

بطشها وانتقــــامها ، لم تستطع الا ان تصرخ في وجه الشاب ولوعة الحقد العاجز المقهور تأكل قلبها :

ــ لولاك أنت ما مات ولدى .. انت الذى قتلته .. واذا كنت أنا قد عجزت عن قتلك بيدى ، فسأقتلك ذلا وعذابا أيها الصعلوك .. ان تدخل بيتى أبدا . البيت لى أنا وحدى . وهبه والدك لى أنا وحدى . فعش منذ الساعة بلا مأوى ، وحيــــدا شريدا ، تستجدى الحسنة من الناس ، وتبيت الليل فى المذاود ، وتظل هائما على وجهك حتى يستنزف البؤس قواك ، فتنهار على نفسك وتموت يوما فى عرض الطريق .

وجمحت بها صورة البغض ، فانثنت الى ناجاو ، وأمسكت بذراعها وصاحت :

ــ وأما انت أيتها الفتاة ، أيتها الفتاة الشاذة الميول والاهواء ، التى تغافل والدها ولا تخجل بل لا تشمئز من ان تعشق فتى هو أشـــبه بالشلو أو بالرمة منه بالانسان ، ففى وسعك اذا كان هــذا العشق العجيب قد برح بك ان تنقذى معشوقك بأن تشتغلى وتطعميه!

والتفتت الى الجمــاهير واردفت وهى تضــحك فى خبال :

ــ انها تحبه .. تصوروا انها تحب هذا الكسيح . فلماذا لا تتزوجه اذن ؟ .. تزوجيه .. تزوجى شلوك الاجرب . وفى سبيل حبه أصبرى وتحملى .. تحملى حرقة التلهف على الرى المليء العميق ، واقضى العمر كله جرداء شمطاء كأرض منعونة يمجها الغيث ولايطرقها الخصب أبدا .

فذهل الشيخ والد ناحاو، وغشى الدم وجهه ، ووثب

بالام نازيتا ، وقبض على عنقها .

فدفعته عنها فى عنف وقالت :

ـ أولى بك أن تخنق أبنتك سترا لعارك من ان تخور كثور مطعون .. اقتلها والا غافلتك فى الغد أيضا واقترنت بهذا المفلوج .

فصاحت الفتاة وقد لمعت عيناها ، واتقدت وجنتاها، وتبدلت فجأة وحفت بوجهها الشاحب الجميل شبه هالة من نور :

ـ ما غافلت والدى بالامس لارتكب شيئا محرما ، ولن أغافله فى غد أيضا كما تزعمين ..

وتوقفت لحظة لتلتقط انفاسها ، ثم نصبت قامتها ، ورفعت راسها وتحولت نحو رئيس الكهنة وقالت :

ـ الآن .. وأمامكم جميعا .. سأتزوج حوريس !

فتطلع اليها والدها الشيخ مبهوتا ، وسرت فى الجماهير غمغمة طويلة . ولكن الفتاة أردفت فى صوت واضح ثابت وبصرها مسدد الى الجمع المحدق بها :

ـ لن أتخلى أبدا عن حوريس .. أجل انا أحبه.. أحب هذا الفتى التاعس المسكين الذى شاء القدر لحكمة عليا أن يحمل اسم ابن الالهة ايزيس . أحبه بالروح .. أتسمعون ؟ .. أحبه بالروح الباقية الخالدة فلماذا تستغربون ؟.. لماذا تحملقون فى هكذا ؟.. أليست الروح هى التى أوجدت كل ما هو عظيم فى هذه الدنيا؟ ألم تكن ايزيس فى البدء عذراء فولدت ابنها الاله حوريس بقوة الروح ؟.. ألم يكن حبها الروحى لزوجها اوزيريس هو الذى أبقاها وفية له بعد موته ، وهو الذى عاونها على بعثه من الموت بعد ان قتله أخوه اله

الشر ست ؟.. وآمون؟.. آمون المجيد ؟.. ألم يخلق نفسه بنفسه ، وينبثق من قوة هى قوة الروح ؟.. ألم يأمرنا بتقديس العمل الوديع ليعلمنا معنى التواضع والبراءة ، ويغرس فى قلوبنا زهرة الروح ؟.. أى انسان منكم أحب بالجسد ودام حبه ؟.. ألنار الخالدة هى الخليقة بالحب . وأنا أحب فى حوريس نار قلبه وروحه .. احب روعة الالم البشرى المثلة فيه .. أحبه لأنه فى حاجة الى .. أحبه لانه يوحى الى قلبى وخيالى ان اكون عظيمة ، ان أكون شبيهة بايزيس ، فأبعثه من وهدة الشقاء والموت ، وأضحى بحياتى كلها من أجله .

والتفتت الى الام نازيتا وأردفت :

ــ لن يأكل حوريس بعد اليوم خبز الكراهية .. لن تحل عليه لعنتك ولن يصيبه انتقامك .. لن يكون شريدا ولا بائسا ولا صعلوكا .. سيجد القلب والعزاء ، والراحة والسلام ، والزاد والمأوى .. هنا .. فى حرم هذا المعبد ..

فانقض الشيخ والد ناجاو على ابنته ، وطرحها على الارض وصاح :

ــ ماذا فى نيتك ان تفعلى ؟ ..

فأجابت فى هدوء وهى تنهض ، وتحدق الى السماء ، وهالة النور تطوقها كأنها تحرس شخصها وتحميه :

ــ كل من يدخل حرم هذا المعبد وينشد الحياة فيه، يجب ان يظل طاهرا والا ثأر منه الاله آمون بحرمانه من نعمة البصر .. فأنا وقد جاوزت الثانية والعشرين وأصبحت أملك حق التصرف فى مستقبلى وحياتى ، اعلن هنا ، على مشهد منكم وبين يدى رئيس كهنتنا

الاقدس ، انى وهبت نفسى لعبادة الاله آمون ، وانى لن أغادر معبده مدى الحياة ، وانى متأهبــة للزواج من حوريس بالروح لا بالجسد .. متأهبة لرعايته وخدمته والتفانى فى الاخلاص له ، على ان يهب نفسه هو أيضـا للاله العظيم ، فنقضى العمر معا فى حرم معبده ، اخوين طاهرين لا تتطرق الى حبنا شبهة من دنس .. وانى لأقسم ، أقسم على ذلك بالاله القادر . فهل تقسم انت أيضا ياحوريس ؟ ..

فتحامل الشــاب على ذراعيه ، وقال فى طمأنينـة وسكون كأنه كان يعلم علم اليقين ان ناجاو قد رصدت له بالقلب والروح قبل أن تولد :

ـ أقسم !

فارتمى الشيخ والد الفتاة عند قدمى رئيس الكهنة وصرخ :

ـ لن يطاوعك ضميرك على ان تفقدنى ابنتى على هذه الصورة .. انها وحيدتى .. انها بهجة شيخوختى .. لن أدعها تموت وهى بعد لم تر الدنيا .. هذه التضحية لم تصدر عن عقيدة أو ايمان بل عن حب دنيوى شاذ ومستنكر . انها تضحية باطلة وابنتى لن تقوم بها . لن تقترن بهذا الشلو الـكسيح .

وجذب ناجاو من ذراعها ، وهم بأن يدفعها ويمضى بها . ولـكن رئيس الـكهنة أسرع اليه ، واهاب به وهو يقطع عليه الطريق :

ـ قف .. الفتاة راشدة وليس من حقك ان تعترض ارادتها .. وسواء أكانت تضحيتها صادرة عن ايمان دينى أم عن حب بشرى فهى تضحية يقرها الدين لان

غايتها الرحمة !.. انها قدر الهى أقوى منى ، وما أنا الا خادم الله ، وليس فى مقدورى الا ان أزوج الخطيبين، كما انه ليس فى مقدورى أن أحلهما من تبعة القسم !

واندفع نحو الحرس وصاح :

ـ افتحوا أبواب المعبد .

وانفتحت أبواب المعبد جميعا . وحمل الكهنة حوريس ، وتقدمت ناجاو وفى اثرها الجماهير تهتف وتهلل . فاشتد يأس الوالد الشيخ ، وتشبث بأبنته وطفق يصرخ ويبكى :

ـ اقتلونى ولكن لا تأخذوها منى .

فنحاه رئيس الكهنة وقال :

ـ افسح لهما الطريق والا أهلكك آمون !..

فتراجع الرجل ، وألقى على ابنته المعبودة نظرة وداع ، وظل واقفا يجيل الطرف حوله وهو عاجز ومذهول ...

الراقصة والساحر والأمير

« وقعت حوادث هذه القصة فى بلاد فارس عام ٢٣٠ بعد الميلاد . وكانت الامبراطورية الفارسية قد خضعت قرونا طويلة لحكم « البارتيين » وهم قبائل أجنبية متوحشة انحدرت من جنوب شرق أوربا ومن شمالها الغربى . فلما تعاقبت مظالمها ، ثار فى وجهها ارتاكزرسيس ابن ساسان الوطنى الفارسى فحاربها ودوخها ، واستطاع ان يؤسس الاسرة الساسانية الايرانية الخالصة . على ان طائفة كبيرة من البارتيين كانت قد ارتدت الى صحراء « كوهستان » وشرعت تعد العدة لغزو البلاد مرة أخرى . فبعث اليها ارتاكزرسيس بجيش جرار أسند قيادته الى البطل « مازندران » فتمكن البطل من تلك الطائفة وأفناها

فمنحه ارتاكزرسيس حق الامارة على جزء من ولاية خراسان وجعل منه الرجل الثانى فى الدولة بعد الامبراطور . ولكن هذا الرجل القوى اصطدم بامرأة طموح وعاتية . فكانت المأساة التى سنحاول أن نصورها » .

***

كانت الفتاة « اراكسا » جالسة فى الكوخ الكبير

تحدق من بابه المفتوح الى السماء المكفهرة ، وتتأمل ضبابها الكثيف ، وتفكر ... وفجأة أبصرت صديقها الشاعر اتريك .

***

فتأبطت ذراعه ، ودفعت به الى خارج الكوخ فى الحقل المظلم الفسيح ، وقالت له وهى تبتسم ، وقلبها يخفق :

ــ غافلتك اليوم وذهبت أيضا الى هناك . الى هناك . الى السهل الذى تعرفه . الى السهل الاجرد الواسع . الى بيت الساحر العراف ... ولقد قال لى الساحر أشياء جديدة . أشياء عظيمة ورائعة ...

فضم الشاعر الكهل قيثارته الى صدره ، وتطلع الى الفتاة ، وصاح :

ــ وماذا قال أيضا . خبرينى . اسرعى . فحدقت اراكسا الى الافق المكفهر وأجابت :

ــ أوقد الساحر ناره ، ونظر الى النار طويلا ، ثم ادنانى منها ، وقرأ عليها بعض التعاويذ . ولما اضطرمت النار ، قال لى هذه المرة أيضا وفى لهجة قاطعة : انى راقصة شعبية ولكن مستقبلى زاهر ومجيد ، وان الرب « اورمزد » القوى يحبنى ويرعانى ، وان طائرا عظيما من طيور السماء سيحملنى فجأة الى عالم ذهبى عجيب ! فالى العمل الآن يا اتريك وعسى ان تتحقق نبوءة الساحر .

وكان من عادة اراكسا أن ترقص فى الميدان الكبير حيث يجتمع التجار ، والسماسرة ، والجنود ، وأبناء

الذوات ، والمهرجون وأرهاط الباعة ، وضاربو الرمل. وكانت تحب ذلك الميدان لا للحياة الزاخرة فيه فحسب، بل لاناقة أبناء الذوات من رواده ، وحبهم الجمال ، وعشقهم الفنون . وكان كل واحد منهم يعرفها ، ويعجب بها ، ويسخو عليها ، ويجهر بأنها ، رغم تقدمها في السن ، أجمل وأروع مغنية وراقصة شعبية في « خراسان » كلها .

فلما أشرفت اراكسا على الميدان الكبير ، ورأته يلمع ويتألق تحت أشعة الشمس ، خفق فؤادها ، وأحست، على دهش منها ، انها تضطرب وتتراجع لاول مرة .

لم تفهم لاضطرابها سرا . فحاولت ان تتقدم ولكن شيئا فى نفسها ردها وأذهلها ، ثم أثار أعصابها وأطلقها ، فمشت ساهمة حائرة شاردة ، يؤخرها القلق تارة وتدفعها الجرأة تارة أخرى .

وما كادت تتوسط الميدان ، وتقع عليها أبصار رواده ، حتى تعالى الهتاف بمقدمها . فأسرع اليها أبناء الذوات وحيوها ، ثم أحاطوا بها ، ثم ناشدوها ، وهم ينهرون الباعة والصبيان والاطفال ، ان ترقص لهم وتغنى .

وأجالت اراكسا الطرف حولها ، فأبصرت الرءوس متطلعة اليها ، والوجوه مبتسمة لها ، والعيون تكاد تلتهمها ، فخيل اليها ان حدثا عظيما سيقع اليوم لا محالة . فأهابت بقواها ، واستنهضت عزمها ، وارتمت فى فسحة الميدان ، وشرعت تنقر على دفها وتغنى وترقص .

وكانت تمثل فى رقصتها تمايل الغصن ، وهدير

البحر ، واندلاع النار ، وتماوج الافعى . وكان غناؤها يصاحب الرقص فى دقة ، ويبرزه فى روعة ، ويضاعف من جماله الفطرى ، وسحره الوحشى ، وحماسته الجنونية .

وكانت قيثارة أتريك تبدر الانغام كحبات اللؤلؤ ، او ترسلها كوابل المطر ، أو تبعثها كصرخات ممزقة مدوية .

وظلت اراكسا ترقص وتغنى ، وأتريك يعزف ويبتسم ، والناس من حولهما فى غمرة النشوة الدافقة اشبه بالشخوص ، حتى خارت قوى الراقصة ، فتداعت اعضاؤها ، واختنق صوتها ، وانهارت عياء على الارض وهى تجمع النقود المتساقطة عليها وتضحك .

عندئذ صاح الكل مهللا لها ، هاتفا باسمها . ممجدا سحرها ومهارتها وفنها .

واذ ذاك ، وفى جلبة الميدان المزدحم ، وفى عصف الهتاف والتهليل ، وفى اصطفاق امواج الناس الذين شبثوا بالميدان وجعلوا يصيحون بأراكسا ويطالبونها رقصة جديدة ، برز من بين الجماهير رجل مديد القامة ، عريض المنكبين ، ملثم الوجه ، وشق زحمة المتفرجين ، ثم دنا من الراقصة ، وقبض على ذراعها ، قال بلهجة الآمر :

ــ اتبعينى يا اراكسا !

فبهتت الفتاة وصرخت . فلم يحفل بصراخها ، طوقها بذراعيه . فتملصت منه واستغاثت. فأغاثتها الجماهير واندفعت صوب الرجل الملثم مهددة متوعدة.

وفى تلك اللحظة ، وقبل ان تتمكن الجماهير من نزع

اللثام عن وجه الرجل ، دوى فى الجو صوت نفير. ثم سمع وقع حوافر جياد ، ثم شوهدت عن بعد ثلة من الفرسان تتقدم فى اتجاه الميدان الكبير وهى تنهب الارض . وسرعان ما دب الرعب فى الجماهير ، فماجت واختلطت ثم تدافعت وتفرقت ولاذت بالفرار .

وتلفتت اراكسا تبحث عن أتريك . فألفته بجوارها مسلوب الحول ، طائر اللب . فجذبته اليها فى عنف وحاولت ان تفر به . ولكن الرجل الملثم اعترضها ، وقطع عليها الطريق ، وأهاب بأخذ الفرسان قائلا :

ـ احملها على ظهر جوادك يا سيريوس !

فمد الفارس ذراعه ، واختطف الفتاة ، كما تختطف الحدأة فريستها . فصرخت اراكسا وهى تقاوم :

ـ الى .. الى يا اتريك ! .. لا تدعنى وحدى !..

فرفع الشاعر قيثارته وهوى بها على وجه الفارس. فانتزع الفارس سيفه وحاول ان يطعنه به . ولكن الرجل الملثم لوح بيده ساخطا وهتف :

ـ لا تقتله . خذه معك !

فأسرع الفارس وألقى على اتريك حبلا طوقه به ، ثم أعمل المهماز فى خاصرة جواده . فصهل الجواد ، وانطلق يجر اتريك على الارض جرا ، ويحمل اراكسا الجميلة التى ظلت تقاوم وتناضل وتصرخ ، حتى انهارت قواها ، وسقطت على صدر الفارس فاقدة الصواب .

***

وأفاقت اراكسا من غشيتها . ولكنها ما ان فتحت عينيها حتى بهتت . أبصرت حجرة واسعة تضيئها

ثريات ساطعة ، وتزينها رياش فاخرة ، وينهض سقفها المزخرف على أعمدة عظيمة تنبثق فى شموخ ، ثم تتفتح كأنها أعواد زنابق رائعة .

وامتــــد بصرها الزائغ الى نافذة مفتوحة . فرأت ساحة كبيرة ، تحف بها الاشجار الباســقة ، وتنتهى بربوة عالية نصب فوقها قفص حديدى كبير فيه أسد هائل يروح ويغدو صامتا حانقا متوعدا .

فهلع قلب اراكسا ، وتلفتت حولها مذعورة. وسرعان ما اشتد ذعرها ونهضت صارخة .

رأت أمامها ، بجوارها ، عند قدميها ، شابا جاثيا على البلاط المرمرى الابيض ، جميلا جمالا ساحرا ، ينظر اليها ، ويتفرس فيها ، ويبتسم لها ابتسامة كلها رقة وعذوبة وعطف وحنـــــــان . فتراجعت مذهولة مرتعشة وغمغمت :

ـ أين أنا ؟.. أتريك !.. أتريك !..

فشخص اليها الشاب كأنما هو يشرب فتنة اضطرابها قطرة قطرة ، وقال لها فى صوت ناعم رخيم :

ـ لا أريد بك سوءا يا اراكسا... انت فى بيتى... فى قصرى ... فى حماى !

فصرخت وهى ما تفتأ تحدق فيه :

ـ ولـكن من أنت ؟.. وأين ، أين أتريك ؟ !

فأجاب وهو يبتسم :

ـ انه هنا ... سيأتى بعد قليـــل ... اهدئى . اهدئى يا اراكسا ولا تخافى .

فعيل صبر الفتاة ، ورددت صائحة :

ـ ولـكن انت ، من تكون ، ولماذا جئت بى الى

هنا ، وماذا تريد منى ؟

فنهض الشاب وبسط ذراعيه ، كأنما هو يقدم اليها كل ما حوته الحجرة من كنوز ، وهتف :

ـ انى أحبك يا اراكسا . جميع ما أملك رهن اشارتك . قلبى وحياتى طوع أمرك . لا تخافى منى يا اراكسا . فغاية أملى أن أسعدك !

فجحظت عينا الفتاة تعجبا واستغرابا ، وطوح بها الذهول والرعب . فوثبت الى أقصى الحجرة ، وصاحت وهى تنكمش وتتحفز وتطلق أصابعها كمخالب وحش مفترس :

ـ ابتعد عنى ... اياك . اياك ان تلمسنى .

فقال وهو يرتجف :

ـ انى أحبك !

فتأملته لحظة ، وراعها جماله ، وتجاوب فى قلبها رنين صوته العذب . ولكنها ارتابت فيه على الرغم من رقته وضعفه ، فتراجعت أيضا ورددت :

ـ لا تدن منى ، من أنت ؟.. من تكون ؟.. تكلم...

فأجاب فى صوت خافت ساكن :

ـ أنا الامير مازندران .

ففغرت فاها كبلهاء ، ثم صرخت :

ـ أنت هو القائد المنتصر ؟ !

فحنى رأسه وقال :

ـ انا هو يا اراكسا ، لا تخافى ... لا تظنى بى السوء واطمئنى ... لقد أحببتك منذ شهور طويلة . رأيتك تغنين وترقصين فافتتنت بك ، ولكن اضطرارى الى تأدية واجبى الحربى هو الذى حال بينى وبينك...

ولولا يقيني من عمق حبي وصفاء سريرتي ما اقدمت على اختطافك يا اراكسا !

وخيل اليها ان الدمع يتحير في عينيه . فأوشكت ان تتأثر وتقبل عليه . ولكن زئير الاسد انطلق في تلك اللحظة قاصفا كالرعد . فارتاعت وتقهقرت . فاندفع الشاب نحوها ، وأخذها بين ذراعيه . وقال مبتسما وهو يلاطفها ويهدىء من روعها :

ـ لا تخافي ... هذا أسد جلبته من بلاد كوهستان عقب احدى غزواتي . ولقد سجنته في هذا القفص ليكون مثلا حيا لقوة أعدائنا البارتيين التي استطعت انا التغلب عليها واخضاعها لمشيئتي .

فصاحت وهي تتملص منه :

ـ أما أنا فلن تتغلب على أبدا . لن تسجنني. انني أفهم تهديدك .

فقال وصوته يتهدج :

ـ ان حياتك وحريتك أعز على من نفسي . وانا أوثر ان تقطع يدى اربا أمام عينيك على ان تمتد الى كيانك الرائع بأى أذى .

فنظرت اليه مبهوتة . فاستطرد يقول وهو تائه البصر في عينيها :

ـ كل انتصاراتي لا تساوى هذه اللحظة . هذه اللحظة توجت مجدى ولولاها ما عرفت معنى النصر .

وارتمى عند قدميها ، ولكنه لم يمسها . فسكن وجيب قلبها وتقدمت . تقدمت قليلا . فألفته ساهما شاردا يتطلع اليها كالعابد وراهب. فاطمأنت لحظة اليه، واستأنست بجو اضطرابه ثم تشجعت وابتسمت ، وتفرست فيه .

تفرست فى جبينه الناصع ، وخده الناضر، وقوسى حاجبيه الدقيقين . فلم تستطع تصـــــــــديق بصرها وسمعها ، وعاد الخوف وتمكن منها . فتبـــاعدت عنه متحفزة ، وهتفت :

ـ اذا كنت تريد ان تغتصبنى ، فحذار !

فهز رأسه وتمتم :

ـ وما جدواى من حبك اذا أصبحت عدوتى. انما أريدك مختارة لا مكرهة . وفى سبيل رضاك يهون على بذل مجدى ودمى .

فانتشت اراكسا وترنحت ولم تعد تسعها الدنيا . كيف ؟.. أممكن هذا ؟.. أفى يقظة هى أم فى منام ؟.. أيمكن أن يحبها هى ، هى الراقصة البائسة الوضيعة الشريدة التى جاوزت الثلاثين ، مثل هذا البطل الذى هو أعلى من انسان ، وأقوى من ملك ؟ !.. أفى الامكان تصور هذا ؟.. اذن فقد تحققت نبوءة الساحرالعراف، وتألق ذلك الحظ الرائع الذى كان مرصودا لها فى لوح القدر . هو ذاك . ان حياتها ماتت ثلاثين سنة لتبعث اليوم . ان قلبها المحروم شقى وتعذب طوال ســنين شبابها لينبض نبضا خارقا مدويا فى هذا اليوم . يا له من يوم مشهود فتحت لها فيه جميع أبواب الدنيا . الشباب أمامها . الحب يناديها . القوة طوع أمرها . كل مفاتن العز والجاه والسلطان فى متناول يدها ...

أممكن هذا ؟.. أجل ممكن !.. بل هو الواقع . واقع مختلج حى يجب ان تقتنصه ، يجب ان تحوزه ، يجب ان تثـأر لحرمانها الطويل بأن تبسط سلطانها المطلق عليه . أجل . على قدر صبرها يجب أن تكون رغبتها.

على فدر حرمانها يجب ان يكون تمتعها . على قــدر عذابها يجب ان يكون فرحها بالتســــــلط والتجبر والاذلال !..

ونظرت الى الامير الممدد عنــد قدميهــا ، وابرقت عيناها السوداوان الوحشيتان .

أبت أن ترى جماله ، أو تتأثر بكرم نفسه ، أو تقدر فيه شهامته ، أو تحفل بعظم مكانته .

احتواها زهو غاشم جرفها وأنهضها . فوثبت من مكانها . اندفعت الى أقصى الحجرة ، ووقفت فى ظل عمود من الاعمدة الشــــــاهقة ، وقالت وهى مرفوعة الرأس ، منصوبة القامة ، وشعرها المموج يتهدل على كتفيها ولمعة العزم والتحدى تومض فى عينيها المتقدتين:

ـ لن أكون أبدا لرجل الا متى أصبح هذا الرجل جديرا بى وبالحب الذى أنشده !

فقال الامير مستكبرا :

ـ الا يكفيك مجدى وما سأغدقه عليك من نعيم ؟

فأجابت فى احتقار وهى شامخة :

ـ أى نعيم ؟.. ان اكون أميرة جواريك وسيــدة امائك وعبيدك . كلا ... أبدا ...

فصرخ :

ـ اذن ماذا تطلبين ؟ !..

فاستضحكت ودارت حول نفسها كأنها ترقص، ثم تحولت الى النافذة ورمقت الاسد بنظرة ثم أقبلت على الشاب فجأة . فهم بأن يعانقها ، فراغت منه ولاذت بالعمود الشاهق ، ووقفت فى حمايته ، وقالت فى صوت ثابت جهير :

ــ الرجل الذى يمكن ان يكون خليقا بى ، ويمكن ان اكون يوما له ، يجب ان تتوافر فيه ثلاث فضائل يتمثل فيها الحب الكامل والهوى الخالص العظيم . فهل أنت على ثقة من نفسك ومن توافر هذه الفضائل فيك ؟

فبهت الشاب لحظة ، ثم ابتسم وقال :

ــ وما هى هذه الفضائل يا اراكسا ؟ !

فأجابت فى بطء وهدوء :

ــ هى الوفاء ، والتضحية ، والشجاعة !

فهتف :

ــ انها لمادة حياتى ، ولولاها ما أصبحت قائدا وما انتصرت .

فضحكت نصف ضحكة ساخرة ، وقالت :

ــ اذن يجب ان تحقق هذه الفضائل فى ميدان الحب كما حققتها فى ميدان القتال .

فنظر اليها مستفسرا وتمتم :

ــ لا أفهمك .

فصاحت وقد حملتها موجة الزهو والخيلاء وأضرمت فى صدرها نار الطمع :

ــ اذا كنت حقا تحبنى ، فاطرد الآن جواريك كلهن من أجلى . ثم ... ثم طلق امرأتك وتزوجنى ، وكن لى الحياة بأسرها وحدى . فالحب عندى لايعرف الانانية أيها الامير ولا يقبل الشرك !.. هذا هو الوفاء ، وهو الفضيلة الاولى التى أنشدها . فهل أنت قادر عليها ؟.. فكر مليا لانك لو وعدت ، فالشرف يقتضيك ألا تخلف الوعد !

فحملق القائد فى الفتاة لحظة ، وقام فى نفسه ان

يثب بها ، ان يقبض على عنقها ويخنقها . ولكنها كانت ساحرة . كانت فى مناعتها وكبرها شبه ربة . فعض على شفتيه من فرط تلهفه عليها ، ثم عاوده الشعور بالاستنكار والسخط . فهم بأن يدعو رئيس حرسه ويأمره بقتلها . ولكنه تصورها ميتة فذعر ، وتصور حياته من بعدها فاختبل . ثم تصور السعادة التى يمكن ان تغدقها عليه لو أطاعها . فترنح وتخبط وأرسل أنة مخنوقة وصرخ :

ـ لك ذلك يا اراكسا وأقسم لك !

فقطبت حاجبيها ، ولم تتحرك . جاهدت الفرح الجنونى الذى غمرها ولم تبتسم . وأردفت بنفس الصوت البطىء العميق :

ـ اذا كنت حقا تحبنى ، فيجب ، يجب ان تختار ... يجب أن تختار بين ولدك الوحيد وبينى ... انا ما زلت شابة وسأصبح زوجتك ، وقد أعقب منك مولودا ذكرا ، فيجب ان تحرم ابن زوجتك الاولى من حقه فى ولاية الامارة من بعدك ، وان تعلن فى الشعب ان هذا الحق الوراثى يصبح لو شاءت الاقدار وقفا مقدسا على ولدى منك !.. هذه هى التضحية ، وهى الفضيلة الثانية التى أنشدها . فهل أنت قادر عليها ؟

فاستهول القائد المنتصر وقاحتها ، وكبر عليه ان يحتمل كل هذا الذل . فانقض عليها ، وأمسك بخناقها وصاح وهو يرعد :

ـ انى لقاتلك أيتها الفاجرة لا محالة !

وانشب اظافره فى عنقها فلم تقاوم ، بل استسلمت وصرخت وهى تفافله وتختطف خنجره من غمده :

ـ اقتلني . وأن عجزت فسأقضي أنا على نفسي . لن أرد اليك خنجرك حتى أطمئن على كرامتي . ولخير لى أن أموت من أن تظفر بى متاعا رخيصا كفيرى !

ودست الخنجر فى صـــــدارها ، وظلت يدها على مقبضه . فروع الامير، وسحره جبروتها ، واضطرب، وتراخت يداه . فانتهزت اراكسا الفرصة والتصقت به . فأحس لهيب أنفاســـــها الحارة ، ودفء بدنها الفض ، ونعومة بشرتها الصقيلة . فتطوح كالشـارب الثمل وخارت عزيمته . فأسرعت اراكسا وقبلته . فتاه فكره ، وهم هو أيضا بأن يقبلها . ولكنها دفعته فى عنف . فتشبث بها وارتمى عند قدميها ، وطفق يقبلهما وهو يصيح ويردد كمعتوه :

ـ سأضحى بكل شيء ؟.. كل شيء .. حتى بولدى! ولـكن اسرعى ، اسرعى ، واعربى عن رغبتك الثالثة يا اراكسا وارحمينى .

فتمهلت لحظة ، ولمع فى عينيها بريق معدنى كومض سيف قاطع ، ثم رفعت ذراعها وأومأت بأصبـعها الى الساحة الـكبيرة ، الى الربوة العاليـــة حيث القفص الحديدى يلوح من بين قضبانه وجه الاســـد الرابض السجين . وقالت فى صوت غائر أجش :

ـ اذا كنت حقا تحبنى ، فيجب أن تدعو الآن شعبك الى هذه الساحة وأن تصارحه بما اعتزمت عليه . ثم . ثم يجب ان تتسلق امام الشعب هذه الربوة وتفتح القفص الحديدى ، وتطلق هذا الاســـد من سجنه ، وتصارعه بمفردك وتقتله . يجب ان تقتله !.. هذه هى الشجاعة ، وهى الفضيلة الثالثة التى أنشدها والتى

تؤكد لى عزمك الراسخ على تحقيق كل ما طلبته منك. فهل أنت قادر عليها ؟..

فأبرقت أسارير الامير البطل ، وهتف هتاف المقاتل الظافر :

ــ لو استحال الاسد الى طود شامخ أو جبل منيع ، فلا بد أن أذروه ترابا تحت قدميك يا اراكسا !

فصاحت :

ــ اذن فمر بدعوة الشعب ، وافرج عن الشاعر أتريك زميلى وصديقى .

لقد طالما ارتاب فى حظى ، ولن تتم سعادتى الا اذا رأيته بجوارى .

فاندفع القائد كمخبول ، ونادى رئيس حرسه ، وطلب اليه ان يستقدم أتريك ، وأن يأمر الجنود بأن يوقدوا أنوار القصر ، وأن ينفخوا فى الابواق ، ويوقظوا جماهير الشعب ويدعوها الى الساحة الكبرى .

ودوى صوت النفير ، وتلته لعلعة الابواق . فخيل الى اراكسا ان الهواء جن فرحا ، والسماء تفجرت طربا ، والعالم بأسره قد استيقظ من سباته ، وخرج من ضباب أحلامه ، وزحف الى القصر ملهوفا ليشهد هذا الحادث الفذ العظيم .

وحانت منها التفاتة ، فأبصرت أتريك بجوارها ، فصرخت وهى ترتمى عليه وتعانقه :

ــ الساحر يا أتريك . نبوءة الساحر . أتذكر ؟..

فتطلع اليها الشاعر مبهوتا وطفق يرتعد ، ثم ضم قيثارته تحت ابطه وانكمش ، ثم أجال حوله بصره الزائغ خشية أن يعود الجند فيقتادوه الى السجن ويضربوه ثم تمتم :

ـ أين أنا .. أين أنا ؟ ..

فعيل صبر اراكسا ، وهمت بأن تصفعه . ولكنها ارتدت فجأة ، واندلعت عيناها ، وصاحت صيحة قاصفة وقد أخذ بصرها جموع الشعب وهى تهرول متدفقة على الساحة :

ـ انظر الآن ... انظر بنفسك الآن يا أتريك !..

وامتلأت الساحة الكبرى بجماهير اثارها وأطلقها الفضول . فأخذت تتدافع بالمناكب ، وتهدر كالموج ، وتتسابق الى التجمع تحت شرفة القصر وهى تهتف بحياة الامير .

وخرج الامير الى الشرفة ، وهو ممسك بيد اراكسا. فاضطرب الجمهور لحظة ، وما لبث ان اشرأب بأعناقه، وشرع يهلل ويهتف .

وفجأة رفع الامير ذراعه ، فتراخت الجلبة وقرت ، وساد فى الساحة شيئا فشيئا صمت عميق .

ودنا الامير من سور الشرفة ، وأطل على الجمهور المتطلع المتلهف ، وقدم اليه اراكسا ، ثم قال فى صوت واضح المخارج باتر النبرات :

ـ تعرفون ان امبراطورنا ارتاكزرسيس قد منحنى مطلق السلطان والحرية فى حدود هذه الامارة التى كوفئت بها على جهادى ... فباسم الامبراطور دعوتكم لاعلن فيكم ما استقر عليه عزمى ... هذه الفتاة ستصبح فى الغد زوجتى . لن اعرف بعد اليوم غيرها سيدة على بلادكم وعلى قلبى ... انها منذ الساعة أميرتكم ، ولها ولاولادها حق الحكم والولاية من بعدى. أشهدكم على ذلك وأطلب اليكم أن تهتفوا بحياة الاميرة اراكسا معى !

فوجم الجمهور . عز عليه ان تطرد الاميرة الشرعية المحبوبة هى وابنها . كبر عليه ان تصبح هذه الراقصة الوضيعة بين عشية وضحاها زوجة وأميرة ووارثة . فسرت همهمة كبيرة بين صفوفه ، وتراجع منه فريق وصمت وانكمش . ولكن فريقا آخر تشجع واخذ يهتف ... وسرعان ما اقتدى به معظم المتخلفين، وطفق الجميع يهتفون لاراكسا والامير .

ولما خيل الى الامير ان الشعب قد سر بما سمع ، اراد ان يضاعف سروره ، وان يخلب لب اراكسا بتوكيد مشيئتها ، وان يجعل من هذه الليلة ليلة عيد . فرفع ذراعه مرة ثانية وقال :

ـ من تقاليدنا ان تنحر الذبائح تحت قدمى كل عروس . ولكن دم الذبائح الشائعة أوضع من ان يكون قربانا يرفع الى زوجة أميركم . ان قربانها سيكون من دم عريق ... من دم نادر عزيز المنال ... من دم هذا الاسد !

وأومأ بيده الى القفص الحديدى القائم فوق الربوة العالية وأردف :

ـ سأطلق سراح هذا الاسد السجين ، وسأصارعه أمام عيونكم وأصرعه . وأقسم ان زوجتى لن تحل لى الاذا استطعت ان أجعلها تخطو على جثة هذا الوحش وعلى بساط من دمه !

وأشار الى رئيس الحرس ، فناوله سيفا . فاستله من قرابه ولوح به . وفى مثل ومض الطرف ، وثب الامير ، وهبط سلم الشرفة ، وتوسط الشعب ، واتجه صوب الربوة العالية .

وأذهلت الجماهير هذه المفاجأة وأشاعت بين صفوفها الاعجاب والذعر. فتراجعت لفورها وأوشكت ان تتفرق، ثم غلبها الفضول فانطوت على نفسها ، وجثمت فى مؤخرة الساحة . ثم استأنست بالجند المسلحين الذين كانوا قد أحاطوا بالربوة وضربوا نطاقا حولها ، واطمأنت واستسلمت لمتعة المشهد ، وجعلت تصيح وتهتف هتافا حماسيا مشجعا متواصلا .

ودنا الامير من القفص . وقبل ان يفتح بابه ، التفت وألقى على حبيبته نظرة . فأرجفت الكبرياء اراكسا من قمة رأسها الى اخمص قدميها . ولكنها تمالكت نفسها جهدها ، وشدت على يد أتريك ، وظلت مرفوعة الرأس ثابتة . فابتسم الامير ، وحنى سيفه يحييها ثم فتح باب القفص .

وانطلق الاسد يزأر زئير جبار أذله طول الاسر فآلى على نفسه ان ينتقم . وما أن أبصر الامير حتى انقض عليه وهو يهدر . فتقهقر البطل وراغ ثم غافل الاسد وسدد الى رأسه الملبد طعنة . فزمجر الوحش حنقا وألما ، وتحفز ، ثم ضرب الامير بمخلبه فى كتفه . فانخلع بدن الشاب . ولكنه لم يضطرب ، بل كر على الاسد وعاجله بطعنة أخرى . فثار ثائره ودوى زئيره ، ووثب فجأة ودار حول الامير . ثم واجهه وارتمى عليه، مهشما وجهه ، ممزقا صدره ، موشكا ان يضيق عليه الخناق ويطويه تحت مخلبيه الغيلظين . فتعالت الصرخات من الساحة الكبرى ، وطفر قلب اراكسا الى حلقها وكاد ان يخنقها ، واندفع الجند نحو الربوة ملهوفين . ولكن الامير أقصاهم بصيحة ، ثم تجلد

وتماسك وأفلت من الوحش وعاد فانقض عليه انقضاضا صاعقا ، وأوسعه طعنا مسددا متداركا محموما. فأعماه فتضعضع الاسد وتخبط . فلم يمهله ، وعاجله بطعنة فى عنقه . فأرسل الوحش زمجرة مخنوقة ، ثم انهد كجدار متصدع وهوى على الارض مضرجا بدمه .

وفقدت الجماهير صوابها . جرفتها نشوة الاعجاب والفرح ، فاندفعت نحو سفح الربوة ، واخترقت نطاق الجند ، وجعلت تهتف وتهلل وتنشد أناشيد النصر .

وأحست اراكسا وهى واقفة فى الشرفة بجوار أتريك انها تكاد تموت كبرا وفخرا ، وان هالة من نور تسطع حولها ، وسيلا من المجد يتدفق عليها ، ولهبا من العبادة والتقديس يتصاعد اليها ويطوقها . أحست انها حققت كل شىء . فازت بكل شىء . استحالت فى مثل لمح البصر من فريسة الى ملكة . فذهب بلبها تصور سلطانها المكفول ، وهمت بأن تقفز من الشرفة ، وتسرع لتهنئة البطل المنتصر . ولكنها ما ان خطت خطوة حتى راجعها زهوها وكبرها القاسى . فغرزت أظافرها فى راحة يدها ، وظلت واقفة مرفوعة الرأس تنتظر من الامير أن يقبل بنفسه عليها ويلقى تحت قدميها جثة الاسد وسيف النصر !

ولبثت تحدق الى الربوة العالية ، والجمهور يهتف ، والامير يستجمع قواه ، وينحنى على الاسد الصريع ، ويحاول ان يحمله ويهبط به من فوق الربوة كى يلقى بجثته تحت قدمى اراكسا .

وتمكن البطل من الجثة . رفعها بين ذراعيه ، وتقدم صوب منحدر الربوة العالية ، وطفق يهبط بخطى وئيدة

حذرة وسط عاصفة من الصراخ والتهليل .

وكان منــدلع العينين ، مضموم الشفتين ، متوتر عضلات الوجه ، يلهث من فرط الالم والتعب ، ويغالب نفسه جهده كي يحرص على توازنه ويبلغ نهاية المنحدر، ويلقى فى الساحة الـكبيرة بحمله الثقيل .
وهبط أيضا . تقدم ، تقدم والدم ينزف منــه ، وأوشك أن يصل .

وفجأة ، وبينما هتاف الجماهير يدوى فى أذنيه ، واضواء طيف حبيبته تخطف بصره ، ونشوة النصر الـكامل الوشيك تضرم فى كيانه نار المجد والشــوق والحب ، توقف مكرها وترنح ... ترنح أمام ضبــاب غشــيه فجأة وأذهله . ترنح أمام شيء غادر ، شيء وضيع ، حصاة صغيرة ، حصاة تافهة ، حصاة خبيثة، اعترضت فى المنحدر طريقه . فزلت قدمه ، وفقــد توازنه ، وهوى متدحرجا على الربوة ، وحلمه يتبعه ، وجثة الاسد تدفعه ، وتطويه طيا متعاقبا عنيدا فى تراب الارض المتربصة الساخرة الجامدة العمياء !..

وبهت الجند والشعب لحظة ، ثم علا صراخهم متمزقا مستهولا مستغيثا ، واندفعوا جميعا نحو سفح الربوة يتشاتمون ويتضاربون ، وكل منهم يود أن يسحق الآخر عساه أن يبلغ مقدمة الصفوف ويطمئن على ســلامة الامير .

واذ ذاك ، وفى غمرة القلق واللهفة والتضرع والامل، ارتفعت أصــوات الجنود مخبلة كالرعب ، متحشرجة كاليأس ، نائحة كالحسرات ، وطفقت تردد :

ــ مات الامير !.. مات الامير !..

فشقت الفضاء صيحة لوعة مجنونة أرسلتها اراكسا، وجمد الجمهور كأن برق الهول قد ضربه بصاعقة. جمد فترة ولم يصدق ، ثم تحرك بغتة وأخذ يجأر ، ثم زحف دفعة واحدة فى اتجاه الربوة ليرى بعينيه ويستوثق مما سمع .

وكان الذهول قد استحوذ على اراكسا ، وبلبل فكرها وشتت عقلها ، فلم تستطع أن تفهم أوتتصور.. لم تستطع ان تتصور كيف يحالفها النصر الكامل المطلق ، ثم يخونها فى اللحظة نفسها . كانت بين متيقظة وحالمة ، بين واعية وشاردة ، بين متأكدة وغير متأكدة . فأرادت ان تتأكد أيضا ، ان تستوثق هى أيضا .

فأسرعت وتركت الشرفة وهمت بأن تهبط الدرج . ولكن نواح الجنود سمرها فى مكانها . فأحست لاول مرة منذ انتصارها ، لاول مرة فى حياتها ، فى حياتها الصابرة المتحرقة الواثقة ، ان كل شيء قد تنكر حقا لها ، وكل شيء قد غدر فجأة بها ، وكل شيء قد تهاوى الآن خرائب وانقاضا ، وأبى الا أن يجرفها هىالاخرى، ويدفنها فى تراب أحلامها .

وبرح بها الكمد واليأس والعذاب . فتحسست الخنجر الرابض فى جوف صدارها ، وعزمت. عزمت ان تتخلص فى لحظة وتنتهى. ولكن فكرة الموت هالتها. فاستنكرت وعزت عليها نفسها . تراجعت وتصلبت ، ولم تعد تطلب ، عزاء ليأسها وحسرتها وكبريائها ، اكثر من بقاء ذكرى الحلم الرائع ماثلة فى ذهنها ، واكثر من ان ترى البطل الذى احبها كما لم يحب رجل امرأة ، وأن تضمه وتقبله وتودعه الوداع الاخير. فاستنهضت قواها المضمحلة وصاحت :

ـ احملوا الامير الى القصر !

وكان بعض فراد الشعب قد تمكنوا من رؤية أميرهم وروعهم منظر جثته المهشمة المشوهة المثخنة بالجراح. فما ان سمعوا صوت اراكسا وتنبهوا لوجودها ، حتى أشاروا اليها ، وعرضوا بها ، وتهامسوا ساخطين وحانقين بأن أميرهم ما مات الا بسببها .

واشتد الحنق بواحد منهم ، فتشجع وتقدم . ثم توسط الجماهير ولوح بقبضته صوب الشرفة وهتف :

ـ هذه المرأة هى التى قتلت أميركم !

وتحمس آخرون وصاحوا :

ـ الموت ... الموت للفاجرة !

وعندئذ تنبه الجمهور كله ، وانفجر غضبه الهائل المكظوم ، وساورته حمى الثأر والفتك والتشفى . فتحول من سفح الربوة وتقدم فى اتئاد عازم مروع ، ومشى الى شرفة القصر وهو يردد :

ـ الموت للفاجرة !

وجحظت عينا اراكسا دهشا ورعبا . تمثلت فى لحظة خاطفة خيال مصرعها . فجن جنونها وهى تتصور الجماهير تتألب عليها بغتة وتمزقها . فلم تتردد وهمت بأن تنتزع الخنجر من صدارها . ولكن أتريك الذى كان يرقب الجمهور ويرقبها ، وثب بها ، ثم أحاطها بذراع كأنها طوق من حديد ، وساقها عنوة واقتدارا الى بهو القصر ، وهو يصرخ :

ـ لن أدع الشعب يمثل بجثتك يا اراكسا . يجب ان نفر !

واقتادها من كتفها ، ثم أوصد باب البهو باحكام ،

ثم دفعها أمامه دفعا فى حجرات القصر الخاوية ، ثم انسل بها من الباب الذى كان قد دخل منه فى صحبة الجنود ، ثم جرها فى دهليز طويل مظلم سرعان ما أفضى بهما الى شارع هادىء غير مطروق . وكان الشارع قد بدأ يتلألأ تحت ضوء الفجر ، ويترامى اليه الوقت بعد الآخر صياح الجنود وهدير الجماهير .

واحس اتريك ان اراكسا توشك أن تسقط عياء وخورا. فلم يفقد توازنه ، وأسرع وربط قيثارته بحبل لفه حول عنقه ، ثم حمل اراكسا بين ذراعيه ، وقيثارته تتأرجح على ظهره ، وطفق يركض فى الازقة والدروب التى لم تكن بعد قد غشيتها جلبة الصياح ، حتى بلغ مشارف المدينة ، فتحول عنها واتجه صوب ضاحيـة فيها غابة كثيفة مهجورة كان يعرفها ، فألقى بحمله فى الغابة بين غصون الاشجار وتحت حمايتها ، ثم ارتمى على الارض منهوكا محطما ..

وما أن أحس انه قد بدأ يهدأ ويجمع أنفاسه ، حتى حانت منه التفاتة الى اراكسا ، ففغر فاه متعجبا ولم يصدق ...

أبصرها تنهض ، تنهض من فورها كأنهـا لم تفقـد الساعة كل عصارتها ، وتهيب به وقد استردت قوتها ونشاطها وجبروتها :

ــ قم !..

فنظر اليها مبهوتا وغمغم :

ــ الجنود فى أثرنا ، ويجب ان نمكث هنا حتى مساء الغد على الاقل ... معى خبز وجبن وفطير . فرددت صائحة :

ـ قم ..

فقال : الى أين ؟..

فقالت وهى تعض شفتيها :

ـ اما ان تتبعنى ، واما أن أدعك وأذهب بمفردى.

واختطفت من جعبة أتريك المنديل الاحمر الكبير الذى كانت تتمنطق به عندما ترقص ، واتخذت منه شبه نقاب أسدلته على وجهها ، وقالت :

ـ هيا بنا ...

فغطى أتريك رأسه بكوفيته حتى عينيه وأذعن ومشت به الى أطراف المدينة ، وهو مستغرب ينتفض ويتلفت وهى ساكنة صامتة .

وكان لا حديث للناس الا مصرع الامير العاشق وفرار الراقصة المجرمة . فلم تتأثر اراكسا ولم تضطرب ، وعرجت على حى شعبى قصى ، ثم اخترقت الحى ودخلت منطقة جبلية نائية ، ثم انطلقت فى سهل واسع أجرد ينهض فى أقصاه منزل أسود متحدب صغير بنى بالرمل والطين .

وما ان لمح الشاعر السهل والبيت حتى تنبه وتراجع وجذب اراكسا من كم ثوبها وصاح :

ـ وما جدواك الآن من المجىء الى هنا ؟..

فلم تجبه بكلمة . وتقدمت وركلت باب البيت الاسود المتحدب ودخلت .

وكان الساحر العجوز الذى تنبأ بمستقبلها ووجه حياتها وسلطها على نفسها ، متربعا على الارض ، مكبا على قدر كبيرة فيها ماء يغلى ، ورأسه الممدود يهتز ، ويداه المعروقتان ترفان فوق القدر ، وفمه

الناتىء المجعد الغليظ يقرأ على الماء بعض التعاويذ والرقى .

ودنت منه اراكسا ، وقالت وهى تكشف عن وجهها النقاب :

ـ ألا تعرفنى أيها الشيخ ؟..

فأجفل الساحر وتطلع اليها . فجلست القرفصاء أمامه ، وحدقت فيه بعينيها الناريتين لحظة ، ثم أمسكت بذراعه وصاحت فى وجهه وهى ترعد :

ـ لقد ضللتنى أيها الدجال !.. وما دمت قد عرفت عن حياتى الشىء الكثير ، فلماذا لم تعرف عنها كل شىء ؟ !.. كان يجب ... كان يجب ان تعرف كل شىء . كان يجب ان تكون أقوى من القدر !

وغافلته وهو مأخوذ ، وانتزعت الخنجر من صدارها، وأغمدته فى عنقه .

فصرخ أتريك :

ـ الرجل برىء ... أنت ... أنت التى كان يجب ان تكونى أقوى من الطمع !

فرمقته بنظرة هائلة وقالت :

ـ كان البستان كله ملكى ، فكيف كان يمكن ان اقنع منه بزهرة واحدة ؟ !.. كان على الساحر الذى يعرف المجهول ان يستبطن دورة الايام ويجنبنى بطش القدر .

فقال أتريك :

ـ ليس الساحر باله .

فصاحت اراكسا :

ـ وأنا أيضا لست بالهة . انا امرأة !..

وأردفت وهى تسدل النقاب على وجهها :

ـ عد بنا الى الغابة يا أتريك ... سنمكث فيهـا ما استطعنا ، ثم نرحل بعد ذلك الى بلد بعيد ...

وأوصدت خلفهما الباب ، ومشت فى السهل الاجرد الواسع ، ثم توقفت وأوقدت نارا فى قصبة ، ثم أخرجت مرآتها الصغيرة ، ورفعت نقابها ، ونظرت فى المرآة . فأبصرت الشيب الفظيع قد التهم شعرها . فأدركت ان القدر يتعقبها ، وان جناحه المرهوب يأبى الا ان يطوقها . ولـكنها أتلعت جيدها . صرت على أسنانها وانطلقت واثبة ، ثم تمنطقت بمنديلها الاحمر، واختطفت دفها . ثم هزت الدف فى زهو وثقة ، واندفعت ترتاض على الرقص من جديد وهى تصرخ :

ـ سأصبغ شعرى !

وظل أتريك يحدق فيها وهو ذاهل مشدوه ...
وظل اتريك يحدق فيها وهو مشدوه ...

فهرس

صفحة

أضواء على الادب :

أضواء على الحياة :

قصص من حياتنا :

قصص من التاريخ :

كتاب الهلال القادم ...

م . ع . الهمشرى

حيــاته وشــعره

بقلم : صالح جودت

يصدر ٥ ديسمبر ١٩٧٤

الثمن ١٢ قرشا

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

جدة – ص . ب رقم ٤٩٣
السيد هاشم على نحاس
المملكة العربية السعودية

انجلترا :
THE ARABIC PUBLICATIONS
7, Biskopsthrope Road
London S.E. 26
ENGLAND.

البرازيل :
Sr. Miguel Maccul Cury.
B. 25 de Maroc, 994
Caixa Postal 7406
Sao Paulo, BRASIL



هذا الكتـــاب

اذا كان العلم المادى يهتم بالجوانب العملية فى حياة الانسان، فالأدب يهتم بقلبه وروحه وتطلعاته العليا ·

وفى هذا الكتاب يلقى الأديب الكبير الاستاذ ابراهيم المصرى أضـــواء ساطعة على شخصـية الاديب ورســالته ، ومعنى الادب وغايته باعتبـــاره قوة من قوى التطور المعنوى يستكمل بها الفرد تطوره ورقيه الحضارى ·

ولا يقتصر المؤلف على معالجة المشاكل المتعلقة بالأدب ، بل يتناول الحياة فى شتى ظواهرها الاجتماعية والخلقية والعاطفية · وذلك فى نظرات ثاقبة ، وملاحظات دقيقة ، ولمسات كاشفة ، تمــد القارىء بذخيرة من التجارب الحية ، وتعاونه على فهم نفسه ونفوس الآخرين ·

وينتقـــل المؤلف بعد ذلك الى مراحل هامه من مراحل تاريخنــا الادبى والفنى ، تاريخ نهضتنا المسرحية والسينمائية · فيقص علينا طائفة من ذكرياته اثناء اشتغاله بالتأليف للمسرح والســـينما · فيطرفنا خلالها بكل ممتع من الغرائب التى صادفها والحـوادث التى وقعت له · ثم يفاجئنـــا بوثبة وجدانية تتقد حرارة وحيـــاة ، وتتمثـل فى مقطوعات رائعة من الشعر المنثور بختتم بها هــــذا الكتاب الشائق النفيس